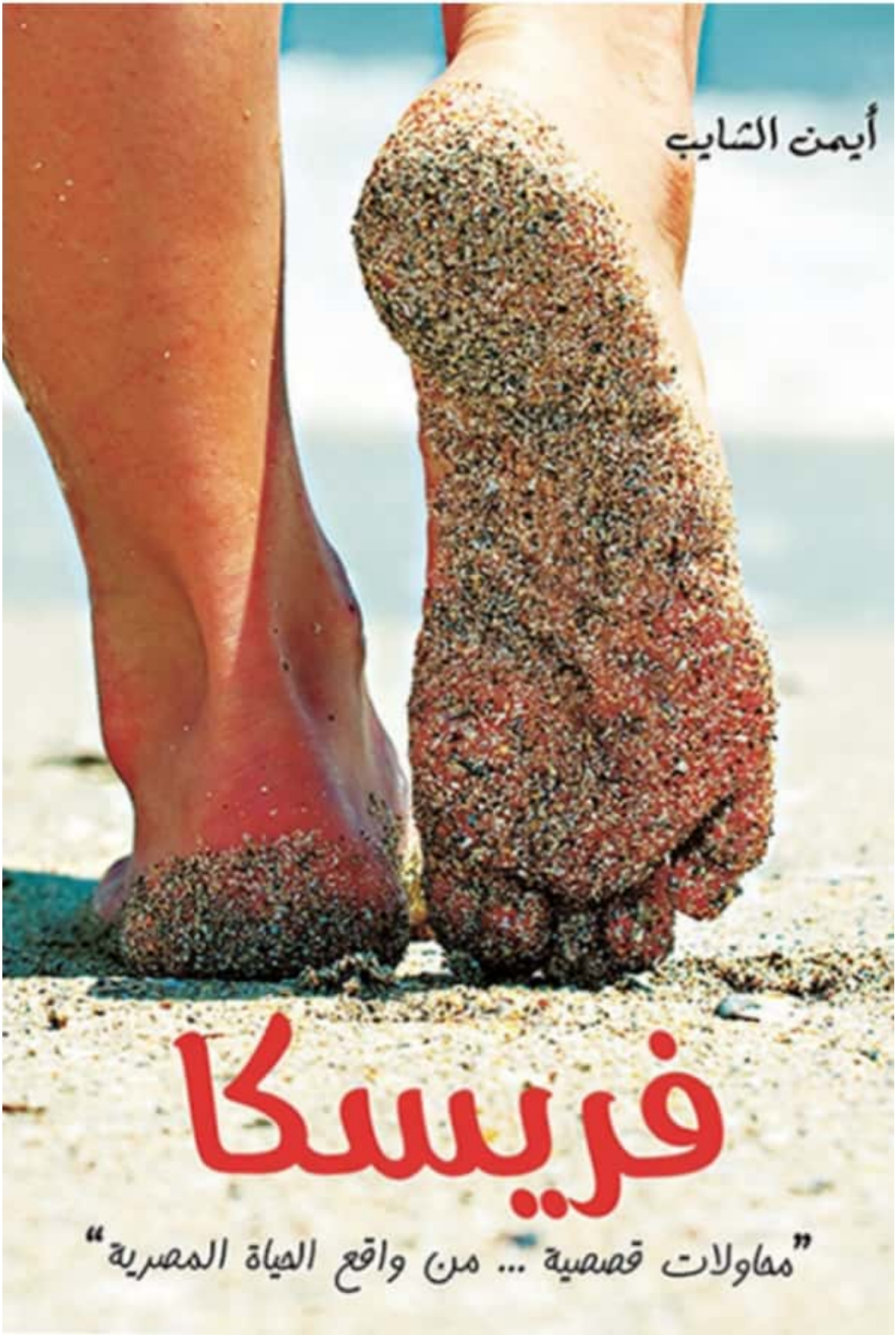
أيمن الشايب
فريسكا
"محاولات قصصية ... من واقع الحياة المصرية"

أيمن الشايب

فريسكا

مجموعة قصصية

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

إهداء لأول وآخر مرة

إلى الصيدلانية التي أحببتها واخترتها لتكون دوائي،
ومع أول فرصة اختيار لها اختارت أن تصبح دائي.
وعدتكِ أن أهديكِ أول كتبي، وها أنا أفي بوعدي.

عندما يصبح الإنسان قطعة فريسكا تقضمه الحياة

وصلنا إسكندرية

قالها أبي وهو يقود السيارة بعد أن دخل بنا من بوابة الإسكندرية، شعرت بعدها وكأن روحي قد عادت إليَّ بعد فراق طويل، كنت قد تعودت المجيء إلى الإسكندرية في مثل هذا الوقت من كل عام لقضاء إجازة الصيف، ومنذ أن كنت طفلة صغيرة ارتبطت روحي بالبحر، وأصبح ملاذي الوحيد. كلما ضاقت بي الدنيا واستحكمت حلقات الحزن على قلبي، جئت إليه وشكوت له، فيذيب كل أحزاني وينعش روحي، وأعود بعدها إلى بيتنا في المنصورة وكأنني ولدت من جديد.

والآن وبعد أن بلغت العشرين من عمري ما زلت أشعر بهذا الارتباط، وكأنه كان يكبر معي يوما تلو الآخر، ولكن الحزن الذي جئت به إليه هذا العام حزن كبير وجرح عميق بداخلي، لا أدري هل سيستطيع البحر إذابته كعادته معي، أم أنه أقوى وأعمق من أن يذاب بسهولة.

-الساعة الآن الخامسة عصرا...

قالتها لي أمي، بعد أن أشرت لها بسبابة يدي اليمنى على معصم يدي اليسرى، لأسألها كم الساعة، ثم تابعت قائلة:

-طبعا هاتموتي م الفرحة علشان هاتروحي البحر.

أومأت لها برأسي ثم شرد ذهني مرة أخرى، وأنا أتأمل الشوارع والناس من خلال نافذة السيارة، وأحاول أن

أستنشق أكبر كمية من هواء الإسكندرية المنعش.

وقفت السيارة أمام العمارة التي استأجر لنا أبي بها الشقة، بشارع خالد بن الوليد بميامي، وصعدت أسرتي إليها، ولكنني لم أطق صبرا وتركتهم وذهبت لكي أرى البحر. ومنذ أن وطأت قدماي رمال الشاطئ حتى شعرت وكأن البحر يغني فرحا باستقبالي، وقفت أمامه وفردت ذراعي أبادله الأحضان والأشواق وأستمتع بمداعبة أمواجه لقدمي، ثم ندت عن صدري تنهدة بدلت من فرحة الأمواج وأبطأت منها وكأنها شعرت بجرحي وألمي، فقلت في نفسي، وثمة دمعة قد شقت لها طريقا على خدي:

- نعم أيها البحر.. الجرح عميق هذه المرة، فقدت على إثره القدرة على الكلام.. أصبحت خرساء، لم أعد "رنين" التي كانت تملأ الدنيا بهجة، وتشيع السرور فيمن حولها، وما يزيد من ألمي أنني لم أستطع حتى البوح لك بما ألمَّ بي، ولكن عزائي الوحيد أنك ستفهمني دون كلام...

وفوجئت بأخي الأصغر يقطع عليَّ خلوتي مع البحر، ويطالبني بالعودة.. وبصعوبة بالغة انتزعت نفسي من أحضانه ووعدته بالعودة إليه مرة أخرى، فما زال المصيف أمامنا، وعدت مع أخي إلى شقتنا، تناولت الغداء واستسلمت لنوم عميق.

وفي المساء نزلت أسرتي للتنزه والتسوق، ولكني اعتذرت لهم عن عدم رغبتي في النزول، وفضلت البقاء

في الشقة أستمتع بالقراءة ومشاهدة الناس وأنا جالسة في الشرفة، حيث كانت شرفتنا تطل مباشرة على شارع خالد بن الوليد، حيث أضواء المحال والزحام الشديد والصخب الذي يعج به هذا الشارع في الصيف. كنت أتأمل وجوه الناس وهم سارحين مستمتعين بكل لحظة يقضونها، وأتأملهم وهم يتهامسون فيما بينهم، فتنتابني الحسرة على عدم قدرتي على النطق أو حتى الهمس، ولكي أهرب من ذلك الإحساس، كنت أضع كل همي وتركيزي في القراءة.

وبعد فترة من التركيز والانهماك في القراءة، رن في أذني صوت منبعث من حنجرة قوية وإن كانت به بحة خفيفة. حاولت أن أكتشف المكان القادم منه هذا الصوت، ففوجئت بشاب يقف على كرسي خشبي على الرصيف المقابل لشرفتي، وأمامه ملاءة مفروشة على الرصيف، وعليها ملابس للبيع، وينادي على بضاعته: "قرب يا بيه بسبعة ونص.. دور وقلب بسبعة ونص"، وظل يتابع النداء دون توقف. وكنت أتأمل وجهه والعروق تكاد تقفز من جانبي رقبته، وأدهشتني قوة صوته وهو يحث الناس على الاقتراب والشراء من بضاعته، وشعرت بألم وغصة في حلقي، حيث كانت طريقته في النداء وصوته الجهوري يشعراني بعجزي عن مجرد النطق، وتساءلت في نفسي: "كيف أن شخصا يستطيع أن ينادي بكل هذا الصوت، وشخص آخر لا يستطيع حتى أن يعبر بصوته عن أي شيء بداخله؟".

كدت أصرخ في وجهه وأقول له: "احتفظ بصوتك، وانعم به، ولا تجعله يذهب هباءً في الهواء من أجل سبعة جنيهات ونصف". ولكن من يدري، أليس من الممكن أن يكون في حاجة إلى المال حتى وإن كانت "سبعة جنيهات ونصف"؟

عادت أسرتي من الخارج، وحثتني أمي على تناول العشاء وأخذ قسط من النوم للنزول إلى البحر مبكرا. ألقيت نظرة أخيرة على الشاب صاحب الحنجرة القوية، الذي ظل صوته يرن في أذني حتى تلاشى بعد أن أغلقت باب الشرفة. تناولت العشاء واستلقيت على السرير، وأنفقت ساعات طوال لكي أوقف عقلي عن التفكير فيه حتى غلبني النوم.

مرت ساعات الليل سريعا، وعندما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، استيقظنا من النوم، ونزلنا متجهين إلى البحر، والصبح يغزل خيوطه الأولى في السماء. كان الشارع خاليا وهادئا. نظرت إلى المكان الذي كان يقف فيه الشاب ذو الحنجرة القوية ليلة أمس، ولكن الرصيف كان خاليا إلا من بعض المحال التي بدأت تستقبل زبائن يوم جديد.

وصلنا إلى شاطئ البحر، واستأجرنا مظلة وكراسي، وجلست أتأمل أبي وإخوتي الصغار وهم يلعبون في المياه ويرشونها على بعضهم البعض. كانت أمي تجلس إلى جواري تصنع لنا الساندوتشات، أما إخوتي الصغار فكانوا يخرجون ليأخذوا منها الساندوتشات ويعودون

بها إلى المياه، وبعد مرور بضع ساعات قررت النزول. شعرت وقتها بأن كل جزء فيَّ يتجدد، وتفتحت مسام جسدي لترتوي من مياه البحر، وغسلت بعضا من همومي، وخرجنا بعد أن اشتدت حرارة الشمس، وجلسنا تحت المظلة نحتمي من حرها ونتناول الغداء.

كان إخوتي قد تعرفوا على بعض الأطفال الذين في مثل أعمارهم، وكانوا يفترشون الرمال ويبنون عليها قصورا رملية، وفجأة جاء أخي الصغير إلى أبي مسرعا يقول، وهو يشير إلى بائع فريسكا قادم من بعيد:

- بابا.. عاوز فريسكا

فقال له أبي:

- اذهب إليه ونادِه

فجرى أخي، وذهب إلى بائع الفريسكا، وأشار له إلى موقعنا، ثم اصطحبه إلينا. كان يمشي بجوار أخي ويحمل فوق كتفه صندوق الفريسكا، ويرتدي صديريا أبيض، وعلى رأسه طاقية بيضاء، وكلما اقترب كلما وضحت معالم وجهه الذي أحرقته أشعة الشمس، وما أن وصل إلينا وألقى التحية حتى سرت في جسدي قشعريرة، وكأنني صعقت بالكهرباء، فقد فوجئت بأنه هو نفس الشاب صاحب الحنجرة القوية الذي كان يبيع الملابس ليلة أمس في مواجهة شرفتنا.

تأملت وجهه الذي يبدو عليه التعب، وعينيه المنتفختين من قلة النوم. اشترى أبي منه فريسكا لإخوتي، وفوجئت بالشاب ينظر إلى بابتسامة تعلو

شفتيه ويسألني بصوت مبحوح:

- فريسكا يا مودموازيل؟

انتابتني الحيرة، وهززت له رأسي بالرفض، وشعرت بعجز شديد لأنني لم أستطع الرد عليه، وحزنت لذلك، فلقد كنت أريد أن أقول له إني "أعرفك، ورأيتك بالأمس وأنت تنادي، بل لقد كنت أفكر فيك حتى غلبني النوم"، ولكن عقدة لساني لم تحل بعد، وما زاد من شعوري بالحزن أنه أحس بإحراج شديد عندما سألني ولم أرد عليه، ووضع عينيه في الأرض وأخذ حسابه وانصرف، ولكنه سرعان ما ذاب بين الناس على الشاطئ، وهو ينادي: "فريسكا، فريسكا"، واختفى من الشاطئ كله، وقد ازدادت همومي بهم جديد، وبعد أن كان هذا الشاب يراود عقلي من حين إلى آخر،أصبح الآن يحتل كل تفكيري، وتساءلت في نفسي: "ما قصة هذا الشاب؟ وما الذي دفعه لأن ينادي بصوته هكذا في الليل والنهار؟ بالتأكيد هناك قوى ما تدفعه لإخراج صوته على هذا النحو. تُرى هل أنا أيضا أحتاج إلى قوى ما تجعلني قادرة على دفع صوتي من داخل حلقي؟"، وظللت أسيرة لأفكاري حتى انقضى اليوم وعدنا إلى شقتنا.

وبالمساء تكررت جلستي بالشرفة، والتأمل في صوت ذلك الشاب الذي أصبح يمثل بالنسبة لي ظاهرة تثير فضولي وتحثني على اكتشاف غموضها. ومر الليل، واستطاع الصباح أن ينزع خيوطه الأولى منه، ونزلنا

مبكرا إلى الشاطئ، وبعد أن قضيت وقتا لا بأس به في المياه خرجت إلى حيث مكان مظلتنا، حتى أتيح الفرصة أمام أمي للنزول مع أبي وإخوتي وجلوسي أنا لحراسة أغراضنا، وبعد أن نزلت أمي جلست أتأملهم جميعا وهم في المياه، وأنا أقضم الساندويتش الذي تركته أمي لي بينما عقلي وقلبي مشغولين بالبحث عن ذلك الشاب في كل مكان. كنت أنتظر ظهوره فجأة بين الناس أو من وراء إحدى المظلات، ورغم أن وقت البحث قد طال، لكنه أخيرا ظهر ورأيته قادما من بعيد بقميصه الأبيض المفتوح، حيث يظهر صدره المليء بغابة من الشعر الأسود، وفوق كتفه يحمل صندوق الفريسكا، وعيناه تبحثان عن زبون، وما أن اقتربت خطواته مني حتى تملكني اضطراب شديد، وكأن أعصابي قد هربت مني وولت، فأسرعت أنظر في مرآة صغيرة كانت معي وأطمئن على شكلي وشعري، واعتدلت في جلستي، حتى فوجئت به يدنو مني ويقول:

- فريسكا؟

وما أن التقت عيناه بعيني حتى رفع رأسه، وكأنه فوجئ بي، وبدا متوترا لبعض الوقت، فما كان يظن أن يراني ثانية، ولكنه رسم على وجهه ملامح جادة وأعاد على السؤال مرة أخرى:

- فريسكا؟

فأومأت له برأسي، فأشرقت على وجهه ابتسامة

طفولية، ودب الحماس فجأة في روحه، وقال:

- سادة أم بالبندق؟

أصابني الاضطراب مرة أخرى، ورحت أبحث في حقيبتي عن النوتة الصغيرة التي أكتب فيها خواطري والقلم حتى عثرت عليهما، وكتبت له بيد مرتعشة: "بالبندق"، ثم قربتها من وجهه، وما أن قرأها حتى نظر لي نظرة ملأتها الحيرة والاستغراب، ثم أنزل الصندوق من على كتفه، ووضعه أمامي على المنضدة، وأخرج لي قطعة فريسكا بالبندق، وقدمها لي، وفي هذه الأثناء كنت قد استخرجت له النقود من حقيبتي. حاول ألا يأخذها، ولكني أصررت.

ودعني بابتسامة باهتة، وما زالت الحيرة والاستغراب يتملكانه، وسرعان ما ذاب وسط الناس، وظل صوته يختفي تدريجيا، وهو ينادي: "فريسكا.. فريسكا".

كنت أقضم قطعة الفريسكا، وغصة مريرة تحتل حلقي، تلك التي أشعر بها كلما تذكرت عجزي عن النطق والكلام، بعدما كنت أملأ الدنيا رقصا وغناء وحديثا على "الفاضية والمليانة" كما كانت تقول أمي. إنها تلك الحادثة اللعينة التي أودت بحياة حبيبي، إن منظرها البشع لا يزال ماثلا أمام عيني. عندما كنت في المنصورة أتنزه مع حبيبي طارق الذي كان ينتظرني كل يوم أمام مدرستي الثانوية، ونتنزه سويا على شاطئ النيل هناك ثم يوصلني إلى البيت، وفي ذلك اليوم المشؤوم بينما نحن جلوس على شاطئ النيل نرسم

سويا أحلام المستقبل، إذا بصراخ يأتينا من طفل سقط في النيل، عندما كان يجري خلف كرته التي كان يلعب بها مع زملائه. وما كان من طارق إلا أن خلع قميصه وقفز في الماء لينقذ الطفل. كان الناس قد تجمعوا والتفوا حول ضفتي النيل يراقبون الحدث في صمت وترقب، وبالفعل وصل طارق إلى الطفل واستطاع أن يدفعه حتى تلقفه أحد الموجودين على الشاطئ، ولكن طارق اختفى عن أنظارنا جميعا وكأن النيل انشق وابتلعه، ذاب مثلما يذوب السكر في المياه. نزل بعض الشبان يبحثون عنه، ولكن دون فائدة. شعرت وقتها بأن جبلا سقط على رأسي فهشمها، وحاولت أن أصرخ وأنادي عليه، ولكن صوتي أبى أن يخرج من حلقي، وعشت بعدها أياما مريرة وأنا في المستشفى، وعلم أبي وأمي كما علمت البلدة كلها بما حدث، خصوصا بعد أن وُجدت جثة طارق تطفو فوق المياه بعد عدة أيام، فشاركوني حزني وألمي على ذلك الشاب الوسيم، صاحب أصفى ابتسامة في الدنيا.

كان طارق هو الحب الأول في حياتي، على يديه ذقت طعم الحب كما حلمت به، كنا نرسم أحلامنا في عش صغير يجمعنا مثل عصفورين، ولكن القدر كان له رأي آخر. آه ما أبشعها من ذكرى كلما تذكرتها تمنيت الموت على إثرها، ولكني أموت بالفعل في كل لحظة لا أستطيع فيها النطق، وكأنها أصبحت علامة ترافقني في حياتي لتذكرني به دائما. أتمني أن أنطق، أن أصرخ

صراخا عاليا، ولكن تبوء كل محاولاتي بالفشل.

بعد أن خرج أبي من المياه طلبت منه العودة إلى الشقة مبكرا لأني متعبة وما عدت أستلذ الجلوس هنا، وعلى الفور استجاب أبي لمطلبي، فقد كان حريصا جدا منذ ذلك الحادث على أن يلبي لي جميع طلباتي حتى أخرج من تلك الحالة، وكان أول هذه المطالب هي أن نأتي إلى الإسكندرية.

وعدنا إلى الشقة، وبعد الاستحمام أخذنا أبي إلى مطعم "أبو هاشم" لتناول الغداء. احتلينا أنا وأبي وأمي منضدة، وإخوتي الصغار منضدة بجوارنا، ونادى أبي على الجرسون، فجاء إلينا شاب أسمر، ما أن وقعت عيناي عليه حتى اتسعتا من الدهشة. "هل هذا معقول؟ إنه هو نفس الشاب صاحب الحنجرة القوية وبائع الفريسكا هو الآن جرسون بالمطعم". كاد عقلي يصاب بالجنون، وهو ما أن رآني حتى اضطرب وارتعشت يداه، وهو يكتب ما يمليه أبي من طلبات، وكان يختلس إليَّ النظر وكأنه يقول في نفسه: "ما حكاية تلك الفتاة معي؟"، وانصرف ليأتي لنا بالطلبات، فتبعته بعيني وهممت أن أقول لأمي: "أليس هذا الشاب هو الذي باع لنا الفريسكا؟"، حتى ألفت نظرها إليه، ولكني فوجئت بها تبادرني بنفس السؤال، فأومأت لها برأسي، وقال أبي:

- واضح أنه شاب مكافح.

سعدت لأن هذا رأي أبي فيه، وانتظرته حتى جاء وهو

يحمل الطلبات، وبدأ يرص أمامنا الأطباق الواحد تلو الآخر، ولاحظت عينيه اللتين كانتا تختلسان إليّ النظر السريع ويداه تهتزان، ومنذ ذلك الحين شعرت أن ثمة شيء خفي يربطني بذلك الشاب، وأصبح فضولي لمعرفة حكايته يصل إلى حد الجنون، وكنت أتناول الطعام وأراقبه وهو ينزل الطلبات لرواد المطعم ويحاسبهم وهو شارد الذهن، وكان ثمة سؤال يراودني: "متى يجد هذا الشاب وقتا للنوم؟"، وأنا على يقين أنه سينتهي من العمل هنا ليبيع الملابس على الرصيف المقابل لشرفتنا، وينادي بصوته القوي:

- "بسبعة ونص"

عدنا إلى شقتنا دون أن أجد إجابة لسؤالي، وبسرعة بدلت ملابسي واصطحبت رواية إلى الشرفة وجلست لأقرأ فيها، وأنتظر حتى يأتي. وبالفعل ما هي إلا دقائق حتى لمحته وهو يفرد الملاءة على الرصيف ويرص عليه بضاعته، ويعتلي الكرسي ويبدأ في سيمفونية النداء التي عشقتها وأدمنتها. رحت أتأمله وأنا أبتسم، ورفضت النزول مع أسرتي للتنزه والتبضع، فلقد أصبحت نزهتي هي الجلوس أمام هذا الشاب والاستمتاع بقوة صوته التي حُرمت أنا منها. كان الناس قد بدأوا يلتفون حوله ويقلبون في بضاعته، وفجأة لمحت أبي وأمي بين هؤلاء الناس. كان أبي يشتري منه قميصا ويفاصله في السعر، واستغربت من حديث أبي المطول معه، ثم زاد استغرابي عندما وجدتهما يتبادلان

أرقام الهواتف ويضحكان معا، ولكني صعقت عندما رأيت أمي تشاور له على الشرفة التي أنا فيها، فشعرت بضربات قلبي تتزايد عندما رأيته يسدد نظره نحوي، وأحسست أنني تعريت تماما من ملابسي؛ فجلست بسرعة على الأرض وأخفيت نفسي تماما خلف سور الشرفة، وكان صدري يعلو ويهبط، ولم أستطع السيطرة على ضربات قلبي المتزايدة. ترى ماذا كانت تقول له أمي؟ ولماذا أشارت إليَّ؟

وبعد مرور نحو الساعة، كنت قد استعدت تماسكي وزال عني التوتر والاضطراب، ودخلت لأصنع لنفسي فنجانا من النسكافيه. وبينما أنا أحمله متجهة إلى غرفتي، سمعت جرس الباب يدق. ظننت في بادئ الأمر أن أسرتي قد عادت، ولكني تذكرت أن أبي معه نسخة من المفتاح، فقطعت تساؤلاتي بفتح الباب، وما أن رأيته أمامي على الباب، حتى فزعت وسقط مني فنجان النسكافيه، وكدت أسقط من هول المفاجأة، فهذا آخر ما كنت أتصوره. كيف عرف شقتنا؟ وما الذي جاء به إلى هنا؟ حاول الشاب امتصاص توتري بأن يعجل من وقفته، فقال وهو يقدم لي بعض الأكياس:

- هذه الملابس اشتراها والدك، وكلفني أن أوصلها بنفسي بعد الانتهاء من عملي، حيث أنهم ذاهبون إلى السينما وسيتأخرون.

تلقفت منه الأكياس، وصفعت الباب في وجهه بسرعة، وأسندت ظهري إليه لألتقط أنفاسي المضطربة، وأحاول

أن أستجمع أعصابي. وبعد ثوانٍ قليلة شعرت بخطواته وهو يغادر من أمام الباب، ففهمت أنه وقف قليلا بعد أن دفعت الباب في وجهه، ووبخت نفسي على الإهانات التي أوجهها له في كل مرة رغم عدم قصدي، ولكني لا أدري لماذا يصيبني الاضطراب كلما رأيته. ومن وقتها أصبحت وقفتي في الشرفة قليلة جدا، بعد أن عرف مكاني وكشفه، وكنت أراقبه من خلف شيش النافذة في الغرفة المجاورة لغرفتي، فأراه دائم النظر نحو شرفتي، وكأنه ينتظر خروجي. وكنت كلما رأيته ينظر نحو شرفتي، أتنهد بارتياح وأعض شفتي السفلى وأحتضن وسادتي، وأستلقي على سريري حتى يغلبني النوم.

وفي صباح اليوم التالي بينما نحن على الشاطئ، استأذنت أبي وتركتهم لأسير وحدي على الشاطئ، وساقتني قدماي بعيدا عن أسرتي، حتى ظننت أني قد تهت عنهم، وعلى مسافة غير بعيدة رأيت ذلك الشاب، كان قد انتهى من بيع الفريسكا لإحدى الأسر، وما أن بعد عنهم حتى تعثرت قدماه في حفرة قد صنعها الأطفال، وشعرت بقلبي يسقط معه عندما سقط في الحفرة وسقط معه صندوق الفريسكا، وتبعثرت كمية منه على الرمال. جريت نحوه ومددت له يدي لمساعدته في النهوض، ففوجئ عندما رآني وتعلق بيدي وجثا على ركبتيه، وأخذنا نلتقط قطع الفريسكا التي سقطت وننفض عنها الرمال، ونعيد ما يصلح منها إلى الصندوق، ونظراتنا مثل الألغاز، وكأن كل منا يحمل للآخر مئات

الأسئلة التي تسألها النظرات وتنتظر الإجابات.

وبعد أن انتهينا شكرني على تلك المساعدة، ووجدت نفسي أسير بجواره في طمأنينة وسكينة، ولأول مرة لا أشعر أني مضطربة وأنا بجواره. واستأذنني أن نجلس سويا على تلك الصخرة القريبة، وفوجئ بموافقتي؛ فتهلل وجهه بنفس الابتسامة الطفولية التي رأيتها من قبل، وسألني عن اسمي، ولحسن حظي كانت معي نوتتي الصغيرة والقلم حيث كنت أسجل بها بعض خواطرى؛ فكتبت له اسمي: "رنين". ردده عدة مرات ثم نظر إليَّ مستفهما، وكأنه قارن بين اسمي وحالة الخرس التي أنا عليها، وفهمته على الفور، فابتسمت، وكتبت له أقول:

- دي حكاية شرحها يطول.. أعدك أني سأقصها عليك، ولكن قل لي لماذا تعمل ثلاثة أعمال في اليوم الواحد؟

وبعد أن قرأ ما كتبته ابتسم، ولكن هذه المرة لم تكن ابتسامة طفولية، ولكنها ابتسامة باهتة تحمل في طياتها شعورا بالمرارة أحسسته في صوته حين قال:

- لقد توفيت أمي وأنا صغير فحُرمت من الحب والحنان، وتركت المدرسة لكي أساعد والدي في عمله حتى نستطيع أن نوفر لإخوتي الصغار المال، وعملت معه نجارا مسلحا في العمارات والبيوت التي تُبنى حديثا، وعندما تقدم بأبي السن أصيب بوعكة صحية وأصبح لا يقدر على العمل، ودخل المستشفى الأميري، وهو بها حتى الآن، وأصبحت المسؤولية كلها على

عاتقي، فأنا لدي أختين على وشك الزواج ولابد من مساعدتهما في جهازهما، هذا بالإضافة إلى إخوتي الصغار الذين أعمل جاهدا من أجل أن يكملوا تعليمهم حتى لا يذوقوا ما ذقته من مرارة الجهل والتسرب وعدم الحصول على شهادة تساندني في الحياة. كل هذا دفعني لأن أعمل ليل نهار من أجل أن أفي بالتزاماتي نحوهم، فقسمت النهار إلى نصفين: الأول أعمل فيه كبائع للفريسكا، والثاني أعمل فيه جرسونا بالمطعم، أما بالليل فجعلته لمشروع خاص بي وبعض من زملائي، وهو بيع الملابس الجاهزة، ولو كان الوقت يتسع لعمل رابع ما كنت مانعت في ذلك.

كنت أستمع إليه، وبداخلي شعور قوي بأن أقوم وأحتضنه وأربت على ظهره، وأعوضه حنان أمه التي فقدها، وأهون عليه مطحنة الحياة التي انخرط فيها وهو صغير، ولكني تخلصت من ذلك الإحساس وكتبت له أسأله:

- وما اسمك؟-

- صابر.

وكان ذلك آخر كلام دار بيني وبينه، فقد رأيت أبي من بعيد يبحث عني بين الموجودين على الشاطئ، فاستأذنته بابتسامة وذهبت إلى أبي، فنظر أبي من حيث جئت، وعندما رأى صابر نظر لي نظرة استفهام، فنظرت له ولسان حالي يقول :

- سأقص عليك كل شيء.

كانت الشمس قد اشتدت حرارتها، ورغم ذلك لم تمنعني شدتها من النزول إلى مياه البحر بدلا من الهرب من حرها، وكأنني أريد أن أحكي له شعوري وأحاسيسي التي تجول بخاطري في تلك اللحظة، وبالفعل نزلت وأنا مبتسمة، وظللت أصعد وأغطس في المياه أحتضنها وتحضنني، ولم أشعر بنفسي إلا وقد سحبتني المياه إلى منطقة لم أجد لنفسي فيها طولا، فانتبهت لذلك، وحاولت أن ألمس الأرض بقدمي لأتأكد من درجة العمق تحتي، ولكني كدت أغرق، فسرت بداخلي رعشة احتلت كامل جسدي وبدأت أشعر بالخطر. حاولت العوم، ولكن للحظ السيئ أصيبت ساقي اليمنى بشد عضلي، وشعرت أنها النهاية، فأصابني الخوف بحالة هستيرية جعلتني أصارع الأمواج بيدي بحركات طائشة، وبدأ رأسي يثقل ويغطس في المياه، وأصبحت ألتقط أنفاسي بصعوبة. "يا الله، ما الذي يحدث لي؟ هل هذا هو البحر الذي أحببته؟ هل من الممكن أن يغدر بي ويبتلعني؟ هل من الممكن أن يخون الحب والعشرة التي تكونت بيننا منذ الصغر؟ أكون قد خدعت فيه؟". عشرات من الأسئلة ظلت تتزاحم في عقلي، وهممت أن أنادي، ولكنني تذكرت عدم قدرتي على النطق، ولكن إن لم أنطق وأصرخ سأموت غرقا. هنا تذكرت صابر، وكيف أنه ينادي بكل قوته حتى يعيش ويجد الرزق له ولأسرته. أنا أيضا لابد أن أنادي حتى أعيش، حتى أنجو. وظللت أصارع الأمواج، وأنا أستحث حنجرتي أن

تنطق، وما أن شعرت بأن روحي تُسلب مني حتى استجمعت كل قوتي ووضعتها في حنجرتي، وتملكتني شهوة الحياة وحب البقاء، وبأقصى عزمي صرخت، وأخيرا خرجت مني الصرخة مدوية، وكأنها بركان قد احتمت مكوناته تحت الأرض وثار كالقذيفة التي اهتزت لها جميع الشواطئ المحيطة بنا، إلا أن الصرخة كان لها وقع خاص على مسامع صابر، الذي التفت بسرعة البرق نحو المكان الصادرة منه تلك الصرخة، والذي شعر بأنه صوتي، رغم أنه لم يسمعه من قبل، وكأن الصوت يناديه هو دون أي أحد من الشاطئ. وسرعان ما ألقى بصندوق الفريسكا على الرمال وخلع ملابسه وقفز في المياه. رأيته من بعيد فاطمأننت وزاد حرصي على النجاة، وإن كانت قفزته في المياه لإنقاذي ذكرتني بقفزة حبيبي الأول طارق في النيل، وخشيت أن يلقى صابر نفس مصير طارق، ولكن لا يهم إن كان طارق قد مات، ولم يعد، فصابر سيموت وأنا معه. ولكن لا، طردت الفكرة من رأسي، ودارت بي الدنيا، ولم أشعر بأي شيء من حولي، إلا بتلك الضغطة على بطني، وتلك الشفاه التي تنفث في فمي الهواء، فخرج الماء منه، ثم بدأت عيني تتفتح لترى أول ما ترى وجه صابر الأسمر الذي أحرقته الشمس، والخوف واللهفة يتزاحمان على ملامح وجهه، والتف الناس الموجودون على الشاطئ حوله ومن بينهم أبي وأمي وملامح وجهيهما تستحثني على الإفاقة، وعاد إليَّ وعيي لأدرك أني نائمة على رمال

الشاطئ، وقد نجوت بفضل ربي أولا ثم بفضل رنين صوتي.

وبعد مرور خمس سنوات على هذا الحادث، كنت أجلس أنا وزوجي صابر تحت مظلة على نفس الشاطئ، نحكى لابنتنا الصغيرة "رنين" كيف تعارفنا على بعضنا فى مثل هذا المكان.

وغابت ابنتنا قليلا، ثم عادت وفي يدها غلام صغير لا يتعدى الخامسة عشرة من عمره، وعلى ظهره صندوق فريسكا، وطلبت من أبيها أن يشتري لها منه قطعة بالبندق. استغربنا لذلك، وعندما سألنا الغلام عن اسمه قال:

- صابر.

فنظرت إلى صابر زوجي ثم انفجرنا في الضحك.

لا تصدق مرآة ترى فيها نفسك كما تحب أن تراها

قبل أن ينزل من بيته، وقف أمام المرآة يتأمل نفسه في ملابسه الجديدة، فهذه هي أول مرة يرتدي فيها مثل هذه الملابس؛ جلباب أبيض قصير، طاقية صغيرة مستديرة، تغطيها "غُطرة" تنزل إلى كتفيه. أخذ يتحسس شعيرات لحيته الصغيرة المتناثرة في غير ترتيب بأنحاء وجهه، ويبتسم في نفسه، فها هو الآن قد كبر ورشد، وبلغ التاسعة عشرة من عمره، ودخل مرحلة جديدة في حياته. وبعد أن تأكد من اكتمال هيئته هم بالنزول، ولكنه تذكر أن باب شرفة غرفته مفتوح، فعاد ليغلقه، وهناك وقعت عيناه على منظر قد تعوده، وكان يحبه، ولكنه الآن وبعد الالتزام والمرحلة الجديدة أصبح يتأفف منه، وهو منظر جارته وصديقة دراسته الثانوية في الشرفة المقابلة، حيث رآها وهي ترقص على أنغام أغنية منبعثة من شريط كاسيت، وشعرها عارٍ ولحمها جعلته أنغام الموسيقى غير مستقر، فغض بصره بسرعة وأغلق الشرفة، وأخذ يستغفر الله كثيرا ويدعو لها بالهداية، بعد أن كان هذا المنظر يحلو له بل وينتظر مشاهدته كل يوم، ولكن كان هذا أيام الضلال، وقبل أن يمن الله عليه بالهداية.

أخذ كتاب "منار السبيل"، ونزل ليلحق بدرس الشيخ بعد صلاة المغرب. كان طوال الطريق لا ينظر لأحد ولا يكلم أحدا، فقط كان واضعا عينيه بالأرض مستخدما

السواك لتنظيف أسنانه حتى وصل إلى المسجد.

وفي المسجد وبعد إقامة الصلاة، أخذ يمر بين الجالسين ممن في نفس عمره ويرتدون نفس ما يرتديه، حتى وصل إلى المقدمة، وجلس أمام الشيخ وتحت رجليه، وأخذ يستمع إليه، وهو يتحدث عن كيفية النجاة من الفتن، وبعد الانتهاء من الدرس وأداء صلاة العشاء، انفرد بالشيخ وسأله عن فتاة كان يعرفها على سبيل الزمالة الدراسية وهي متبرجة، ويريد أن يدعوها إلى الهداية والإيمان، فكيف يكون ذلك؟

فجأة تغيرت ملامح الشيخ، وانقلبت الابتسامة إلى تجهم، وبرقت عيناه وهو يقول:

- إياك وخطوات الشيطان.. إياك وفتنة النساء.

أثارت لهجة وصوت الشيخ الرعب في قلب المراهق الصغير، وارتعدت فرائصه، وانسحب من الجلسة بسرعة، وعاد إلى بيته ساهما ومفكرا في كلام الشيخ ووعيده، ولكنه تذكر أيضا كيف كان يحب تلك الفتاة ويتمناها قبل الالتزام، فهي طيبة جدا وحنون ومرحة وتحب الحياة، ولا تفعل ما يغضب الله غير تبرجها، وهذا هو عيبها الوحيد. ظل يساءل نفسه: هل ما زال يحبها؟ وكانت الإجابة دائما بنعم، لكنه يحاول ألا يستسلم لتلك الإجابة، لشعوره بأن ذلك قد يغضب الله، ولكنه كان يرد على نفسه قائلا:

- ولكنني خائف عليها وأريد مساعدتها، أريد أن أبصرها بما تجهله، أريد أن أشدها معي لطريق الهداية،

ومن يدري، ربما التزمت هي الأخرى، وبهذا نصبح مناسبين لبعضنا البعض، ويجمعنا الله على الحب مرة أخرى، ولكنه سيكون حبا من نوع آخر، حب في الله، أي طاهر وشريف.

واتخذ القرار وعزم على أن يساعدها على الهداية، وهنا تذكر كلام الشيخ مرة أخرى وحديثه عن الفتنة، لكنه عاد ليقنع نفسه بأن الشيخ لا يعلم بما كان بينه وبينها، ولا يعلم أيضا بها وبطيبتها وفطرتها النقية والسليمة، التي ستجعلها تستجيب له بسهولة، وازداد الحماس في نفسه وعقد العزم، وأخذ الحيطة والحذر، قرر أن يتعامل معها "من بعيد لبعيد"، وسيتعمد عدم الإطالة معها في الحديث. ثم قام وأخذ يبحث في مكتبة شرائطه عن واحد يتحدث عن عذاب القبر، وآخر يتحدث عن النقاب، حتى وجدهما، وأخذ ينظر إليهما ويحتضنهما وهو في منتهى الحماس والفرح.

وفي اليوم التالي، كان يقف خلف شيش الشرفة يراقب حركتها داخل غرفتها، فوجدها قد أكملت ارتداء ملابسها وتسريح شعرها ووضع العطر، ثم حملت كتبها وشنطتها وأطفأت نور غرفتها وخرجت وأغلقت باب الحجرة خلفها، هنا استعد بسرعة وأخذ الشريطين، وخطف نظرة سريعة أمام المرآة تأكد فيها من اعتدال ملابسه، ثم دعا الله أن يوفقه، ونزل مسرعا ليلحق بها.

وعند مدخل البيت رآها تخرج من عمارتها، فانتظر حتى تقدمته قليلا ثم أخذ يسير وراءها، ولكن على

رصيف الجانب الآخر من الشارع حتى لا يلفت الأنظار، وكان قلبه في أشد الحزن عليها بسبب تبرجها والذنوب التي تجنيها، وتضاف إليها كلما نظر إليها أحد من المارة.

وبعد أن ابتعدا عن منطقة سكنهما وجد أن الفرصة سانحة للحديث، فناداها من خلفها بكلمة "يا أخت"، فنظرت خلفها، وعندما وجدته توقفت واستدارت له، فحياها وعيناه في الأرض، وقال:

- السلام عليكِ يا أخت..

فردت عليه السلام، وكان قلبه يدق دقا عنيفا، واضطربت أنفاسه، حيث اشتعلت بداخله كل ذكرياته معها، من فسح وتنزه وهمسات ولمسات، وأحيانا قبلات سريعة ساذجة. ورغم أنه كان يتمنى أن يخطف النظر من عينيها اللتين كان ولا يزال يعشقهما، إلا أنه تذكر وعيد الشيخ وكلامه، ووعده لنفسه بأنه لن يطيل معها الحديث، فأخرج الشريطين من جيبه وقدمهما لها قائلا:

- تفضلي هذه الشرائط هدية من أخ لك يخاف عليك ويتمنى لك الهداية.

ففاجأته بجملة لم يكن يتوقعها، عندما قالت:

- لماذا لا تنظر إليَّ؟

شعر بأن الدماء تفجرت في رأسه، واشتدت ضربات قلبه، وتلعثم لسانه، ولكنه قال:

- لأن هذا حرام.

فأخذت منه الشريطين، ليس لاقتناعها بما فيهما، ولكن لأنهما منه، وخيط من الممكن أن يتصل بينهما، أما هو،

فبعد أن ألقى بجملته الأخيرة أطلق ساقيه للريح، ولم يستطع النوم ليلتها من كثرة التفكير، ومما أثاره لقاؤه بها من أحاسيس بداخله، وما حركت فيه كلماتها من رغبات كانت قد سكنت وأحكم السيطرة عليها. وأخذ يستعيد في خياله تفاصيل اللقاء، ويعيد نطق كل كلمة ألقاها، وكيف كانت كلماتها، وتساءل في نفسه: "ترى هل استمعت إلى الشريطين، طالما أنها قبلتهما، فبالتأكيد ستستمع إليهما".

أما هي، فكانت لا تقل اضطرابا أو تفكيرا عنه، ولم تستطع النوم هي الأخرى، مما أثير وتحرك بداخلها جراء ذلك اللقاء، والذي كان أشبه بحجر أُلقي في بحيرة ساكنة وهادئة، فأعاد إليها الحركة وأثار ما تراكم في قاعها وترسب. فتحت باب الكاسيت ووضعت فيه شريطا وضغطت على الزر، فجاءها صوت عبد الحليم وهو يغني "أهواك"، وظلت سارحة مع الأغنية وهي مستلقية بظهرها على السرير حتى استسلمت للنوم.

وفي صباح اليوم التالي، وقف أيضا خلف الشيش ليراقب تحركاتها في غرفتها، وعندما شعر بأنها استعدت للنزول نزل هو الآخر مسرعا، وظل وراءها حتى وصلت إلى نفس نقطة التقائهما بالأمس، ولم ينادِ عليها كما فعل من قبل، ولكنه فوجيء بها تستدير له وتقترب منه والابتسامة تعلو وجهها. أخذته المفاجأة وأربكته، فاقتربت منه وقالت:

- كنت أشعر بك طوال الطريق، وحتى أوفر عليك عناء

مناداتي وقفت من تلقاء نفسي، وها أنا أمامك فاطلب مني ما تشاء.

شعر أن عناء مناداته لها كان أهون كثيرا من عناء الرد عليها الآن، وظل حائرا ولم يجد ما يقوله، فابتسمت بثقة وقالت:

- ألازلت لا تريد أن تنظر لي؟

فجأة ودون إرادة منه، رفع وجهه ليقابل وجهها المشع الجميل، فالتقت الأعين "ويا ليتها ما التقت". شعر وكأن براكين من الأحاسيس والمشاعر تتفجر في قلبه، وأنهارا من الحب تسري بشراييينه وتخدر أعصابه. كم كانت ساحرة تلك الأعين وما زالت. ومرت لحظات صمت وكأنهما قد فقدا الإحساس بالوجود، وأخذا يحلقان في فضاء أوسع وأرحب من تلك الأرض وما عليها، ولكن كانت عودتها للواقع أسرع من عودته، فقالت وهي لا تزال تحت تأثير اللحظة:

- ماذا حدث لنا؟ ولماذا ابتعدنا واتسعت الهوة بيننا؟

أعاده السؤال شيئا فشيئا من الفضاء الذي كان سائحا فيه، ولكنه لم يفقده أيضا سحر اللحظة، فقال:

- منذ أن التزمت بشرع الله أصبح طريقي غير طريقك، ولذلك فكرت في جمع الشمل مرة أخرى وردم الهوة التي بيننا، والاختيار الآن بيدك.

- ولكني مقتنعة بما أنا عليه، ولا أظن أنني أعصى الله.

- ولكنك متبرجة، وتفتنين الناس بتبرجك هذا، وهل هناك عصيان أفظع من هذا؟

- أنا لست مسؤولة عن الناس وتصرفاتهم، أنا أفعل ما أقتنع به وتمليه عليَّ نفسي.

- النفس أمارة بالسوء، إن لم تروضيها ساقتك إلى الكفر والهلاك.

- لا أظن أن الدين ساوى بين التبرج والكفر، الدين أوسع وأشمل من ذلك كله.

- إذن أنتِ التي ترفضين أن يجمعنا طريق واحد مرة أخرى.

- أنت الذي انحرفت وبعدت عن الطريق، وأنت أيضا المطالب بالعودة.

- عموما لقد فعلتُ ما عليَّ، وأنت حرة اختاري ما تريدين، وإذا استقر خاطرك على طريقي فستجدينني منتظرك بمنتهى الشوق.

وتركها وانصرف.

كان الطرفان يحسبان أن بذلك اللقاء قد انقطع أي خيط بينهما، بعدما أعلن كل طرف للآخر أنه متمسك باعتقاده وبما يقتنع بأنه الصواب، ولكن الأيام القليلة اللاحقة أثبتت عكس ذلك الحسبان، حيث زادت الحيرة والاضطراب بداخل كل منهما، وأصبح لا يدري كل طرف منهما هل هو الذي على صواب أم الطرف الآخر هو المحق، فهي حاولت وبعد طول تردد وعناد أن تضع شريطيه في الكاسيت وتسمعهما واحدا تلو الآخر، وهو أخذ يعود بذاكرته ويفكر كيف تغيرت حياته ودخل هذه المرحلة، فتذكر ركوبه ذات مرة بميكروباص أجرة، وكان

ذاهبا لمواعدة فتاة كان قد تعرف عليها عن طريق الإنترنت، وعلم منها أنها بمفردها في شقتها بسبب سفر أسرتها المفاجئ، وأثناء ركوبه الميكروباص كان السائق وهو شيخ ملتحٍ يضع بالكاسيت شريطا عن عذاب القبر، فتأثر جدا بما سمعه، وشعر بخوف شديد، وألغى ميعاده مع تلك الفتاة، وطلب من السائق أن يعطيه اسم هذا الشريط ليشتريه، فأهداه السائق الشريط مجانا، وأرشده إلى المسجد الذي يحضر فيه الدروس حتى يستزيد من العلم بهذه الأمور. بدأ في المواظبة على هذا الدرس، وهناك أخبروه أن حلق اللحية حرام، فأطلقها، ولم يضع عليها ماكينة حلاقة من يومها، كما أخبروه أن الثياب لابد أن تكون قصيرة ولا تصل إلى الكعبين، لأنه بذلك يكون مُسبِلا، والمسبلون في النار، فعاد يومها إلى بيته خائفا، وأمسك بالمقص وأخذ يقص جميع بنطلوناته وملابسه، وعندما أخبروه بأن سماع الأغاني والموسيقى حرام، عاد إلى البيت وأخذ يكسر كل شرائط واسطوانات الأغاني والموسيقى التي كان يحب سماعها، كما أخذ ينزع كل صور مطربيه المفضلين من على حائط غرفته ويمزقها لاعنا إياهم، حيث كانوا سيدفعون به إلى جهنم وبئس المصير، كما خاصم السينما والمسرح ومشاهدة التلفاز إلا الفضائيات الدينية فقط، حتى كرة القدم التي كانت هوايته الوحيدة، خاصمها هي الأخرى لأنها مضيعة للوقت الذي يمكن أن يستغل في الذكر والصلاة والاستزادة من طلب العلم

والأعمال الصالحة، وأصبحت حياته تدور في دائرة مغلقة، ما بين الدرس الخصوصي والدرس الديني، حيث لا فسح ولا تنزه ولا هواية ولا أي متعة من المتع التي شرعها لنا الله، فوقف وقفة مع نفسه وأخذ يتأمل حاله ويتساءل:

"هل هذا صحيح؟ هل أمرنا الله بأن نغلق على أنفسنا بهذه الصورة؟ هل خلقنا الله لكي يعذبنا ويجعلنا سجناء هذا الكون وهذه الحياة؟ وهل كل الناس غير الملتحين والمسبلين سيدخلون النار حقا؟ إنهم بالملايين وعلى رأسهم أبي رحمه الله. إنه مثال للرجل الصالح الذي يحب الله ورسوله ويدعو الناس إلى الدين. هل سيدخل النار لأنه كان غير ملتح، أم أنهم جميعا على حق وهو وحده على باطل؟".

شعر بأن عقله سيشل من الحيرة وكثرة التفكير، وظل يقاوم أفكاره المتعارضة ووسوساته المتلاحقة، حتى قام فجأة وخلع جلبابه وغطرته وذهب إلى الحمام، ووقف أمام المرآة ونظر إلى وجهه جيدا، وظل يتأمل كل جزء فيه، ثم أمسك بماكينة الحلاقة والعزيمة والإصرار يملآن عينيه وكل ذرة في كيانه، في الوقت الذي كانت فيه حبيبته تقف هي الأخرى أمام المرآة لترى نفسها في زيها الجديد.

اغتيال

الموتى لا يموتون مرتين

"شعر بقطعة من الجمر تخترقه وتمزق شراييينه، وتفتك بقلبه الذي ينبض منذ ما يزيد عن الستين عاما.."

خرج عم عايش المصري من الشؤون الاجتماعية مطأطأ الرأس، يحمل هم الدنيا فوق ظهره الذي أحناه الزمن، بعدما رفضوا قبول أوراقه للحصول على معاش الضمان الاجتماعي بسبب نقص مستند. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها مطأطأ الرأس، فكلما حصل على مستند طلبوا منه آخر. وليس استخراج مستند بالشيء اليسير خصوصا على كهل مثله، فهو يحتاج إلى صبر أيوب لتحمل مشقة الطوابير التي لا تنتهي، بما أنه فقير ولا يستطيع أن يغمز الموظف غمزة تجعله ينجز له عمله قبل الجميع، ورغم ذلك يتحمل الرجل كل هذا العناء في سبيل الحصول على المعاش ليسانده وليحسن جزءا من ظروفه، فهو يعمل مراكبيا على قارب صغير في النيل (أي على باب الله)، ورزقه باليوم، والحمل ثقيل، ففي رقبته يتعلق خمسة من الأبناء وأمهم، الابن الأكبر بعدما تعلم ونال الشهادة الجامعية تمرد على مهنة أبيه، بل وعلى البلد كلها، وهاجر منها ولا يعلم عنه شيئا، بعد أن كان يضع عليه أملا كبيرا في أن يساعده ويحمل عنه جزءا مما يحمل، والابنة الكبرى نالت الشهادة الجامعية ولكنها لم تنل حظها من العمل أو الزواج بعد، فاضطرت لأن تصبح

عاملة في محل لبيع الملابس، حتى حاصرتها العنوسة بسبب ضيق الحال وعدم قدرة واستطاعة الأب على تحمل شراء جهازها، أما الذي في الثانوية العامة فيحتاج إلى أجر مطرب أو لاعب كرة قدم كي يسدد له مصاريف الدروس الخصوصية، وما يتبعها من ملازم وكتب خارجية و"العين بصيرة، واليد قصيرة".

كان يمشي لا يدري له وجهة، فساقته قدماه إلى نهر النيل. ظل يمشي والشعور بالأسى والهم يثقلان من خطواته، فجلس على مقعد قريب ليرتاح قليلا، وأخذ ينظر إلى النيل العظيم، ويحدثه قائلا:

- ما أعظمك أيها النهر، وما أتعسك أيضا. منذ فجر التاريخ وأنت تعطي الخير بلا حساب، وأنا مثلك منذ فجر عمري وأنا أعمل بلا حساب، ولكن ماذا جنينا أنا وأنت غير الضيق والنكران والتجاهل؟ فلا قدرك أحد ولا اعترف بوجودي أحد.

وفي أثناء حديثه الصامت مع النهر، وقفت فجأة سيارة مرسيدس سوداء بالقرب من مقعده، وقفز من نافذتها كلب لولو أبيض كثيف الشعر، وتبدو عليه آثار النعمة، وجرى في اتجاه مقعده، ومن خلفه نزلت امرأة ترتدي "ميني جيب" قصيرا وحذاء بكعب عالٍ، وعلى رأسها قبعة وعلى عينيها نظارة شمسية كبيرة، ولم تستطع عمليات التجميل التي تملأ وجهها أن تداري سنها الحقيقي. جرت وراء الكلب الذي أمسك بملابس عم عايش ولا يريد أن يتركها، فاقتربت منه وأخذت

تربت عليه بحنو وهي تدلله وتهدئ من روعه، ثم احتضنته واعتذرت لعم عايش عما حدث، معللة ذلك بأن "كوكي"، وهو اسم الكلب، يعاني من حالة نفسية سيئة بسبب موت "سنسن" الكلبة حبيبته. لم يستطع عم عايش كتم ابتسامته الساخرة رغم كل همومه، فقال:

- يعيش ويفتكر.

فقالت المرأة بصوت متأثر:

- إنه يا حرام لا يتذوق الطعام من وقتها، وأصبح عصبيا للغاية، وبعد أن كان يحب كل الناس تغيرت أخلاقه، وأخذ يعادي كل الناس، وهذا هو سبب تعرضه لك، وأنا الآن ذاهبة به إلى عيادة الطبيب الخاص به حتى يكشف عليه ويطمئنني على حالته.

هنا تذكر عم عايش الأيام التي قضاها أمام أبواب التأمين الصحي بابنته الصغيرة، عندما كانت تعاني من الفشل الكلوي، ورفض الأطباء قبولها نظرا لتأخر الوقت الذي ذهبا فيه، وظلوا يرسلونه من مستشفى إلى آخر، حتى كادت ابنته تموت وتضيع من بين يديه، إلى أن قبلها طبيب على مضض وباستياء شديد، بعدما انهار الرجل بين يديه بكاء وتوسلا أن يرحم الطفلة ويكشف عليها حتى لا تموت، هذا بالطبع غير الإهمال الذي لاقاه هو وابنته داخل المستشفى، وما تكبده من مال في مستشفى من المفترض أن العلاج به بالمجان.

كل ذلك تذكره أثناء حديث تلك المرأة عن كلبها

المحظوظ "كوكي"، فربت على ظهر الكلب بحنو، وظل يراقب المرأة وكلبها حتى ركبت سيارتها الفارهة وانطلقت بها، فابتسم في نفسه ساخرا وقال:

- ليتنا نعامَل معاملة الكلاب.

أخذ يكمل سيره بمحاذاة النيل، وقد عاد إلى التفكير في مسؤولياته والهموم التي وراءه، والمعاناة التي سيعانيها في استخراج المستند المطلوب، وظل يمشي وهو يفكر ويفكر حتى وصل أمام فندق "فورسيزونز"، فلاحظ حركة غير عادية أمام الفندق، حيث تنتشر حوله الحراسة وعربات الأمن، ورجال المرور ينظمون حركة السيارات ويمررونها بسرعة، فسأل أحد الضباط الواقفين:

- لماذا كل هذه الضجة؟ وكل هذا الزحام؟

فأجابه الضابط بحدة، وهو يقرب اللاسلكي من فمه:

- موكب الرئيس في طريقه إلى الفندق.

فاجأته العبارة. هل هذا معقول؟ الرئيس سيمر هنا من أمامه، وسيراه رأي العين. هذا شيء لم يكن يتخيله أبدا، فهو يحب الرئيس ويؤيده "هو أحسن من غيره"، رغم كل ما ذاقه وما زال يذوقه وما سوف يذوقه. وفجأة برقت في ذهنه فكرة ابتسم لها ابتسامة نصر، وشعر بأن الفرصة قد جاءته لتحقيق أحلامه وأحلام أسرته، وصورت له سذاجته أن القدر قد ساقه إلى هنا، ودبر له هذا اللقاء، وصدق هذا الاعتقاد، وعقد العزم على أن يقابل الرئيس، ولم لا؟ أليس هو المسؤول عن

الشعب وهو واحد من الشعب؟

سيحكي له ظروفه ويقص عليه قصة كفاحه في خدمة هذا الوطن، سواء في الحروب التي خاضها دفاعا عنه، أو تمسكه بالعيش فيه رغم كل الصعوبات التي واجهته، وسيخبره بالمعاملة السيئة التي يعامَل بها في كل المصالح الحكومية كلما جاء ليستخرج مستندا أو يتقدم بطلب علاج، وتيسيرهم لكل من يدفع لهم رشوة أو يحمل "كارت" من أحد الكبار. سيشتكي له أيضا من عدم حصول ابنه على فرصة عمل لائقة بعد الشهادة الجامعية التي نالها بأعلى التقديرات، ما اضطره إلى الهجرة وحرمانه منه. وأيضا سيشتكي له لأنهم لم يعينوا ابنته الجامعية كما كانت تتمنى، حتى تحصل على راتب يساعدها على تجهيز نفسها، ما جعلها تُهان وتمرمط في محل صغير لبيع الملابس، دُفنت فيه ودُفن معها حلمها وشبابها.

وأثناء تتابع الأفكار والخواطر برأس عم عايش، اضطربت الحركة أكثر من حوله، فالتفت ليجد موكب الرئيس قد وصل، وسيارات الأمن تحيط به من كل الجوانب والاتجاهات، وأمام باب الفندق استقرت السيارات، وقفز أحد ضباط الحراسة بسرعة ليفتح باب السيارة لينزل منها سيادة الرئيس.

ابتهج قلب عم عايش، وشعر أن الفرصة قد حانت، فعبر الشارع بسرعة البرق ونجح في اختراق سياج الحراسة الملتف حول الرئيس بعزم وقوة، وصور

زوجته وأبنائه الخمسة وأحلامهم البسيطة تتلاحق في عقله. وفجأة توقفت الصور في عقله وتجمد الدم في عروقه، وشعر بقطعة من الجمر تخترقه وتمزق شراييينه، وتفتك بقلبه الذي ينبض منذ ما يزيد عن الستين عاما، وكان ذلك بسبب الرصاصة التي أصابت قلبه فأردته قتيلا.

وفي اليوم التالي، كان المانشيت الرئيسي المتصدر جميع الصحف:

"نجاة الرئيس من محاولة اغتيال".

الهروب

لا مهرب من الموت إلا إليه

تعود ركوب هذا الأتوبيس كل صباح، كما تعود على كل شيء في حياته. أصبح من الطبيعي كلما دقت الساعة السابعة صباحا أن يصعد إلى نفس الأتوبيس من نفس الباب، ليقابله نفس وجه السائق ويتبادل معه نفس التحية التي يتبادلانها كل يوم.. "صباح الخير".

بعدها يتقابل وجهه بنفس الوجوه التي يقابلها كل صباح، والتي يشعر أن أصحابها قد صاروا جزءا من نسيج هذا الكيان الذي يركبونه كل يوم، والذي يسير بهم ببطء شديد يمثل لهم بطء الحياة التي يعيشها. يتأمل الوجوه من حوله فلا يجد وجهين ينظران لبعضهما، كل الوجوه ناظرة إلى الأمام، سارحة في ملكوت خاص بها. كل الوجوه تكسوها الحدة والوجوم، كل الأفواه مغلقة بإحكام ليستحيل الفم إلى سجن استسلم له اللسان، وأحيانا تقع عيناه على رأس يميل يمنة ويسرة، وقد استسلم لنوم عميق أخذ يطيح به ويهز كيان صاحبه هزا عنيفا، بعد أن سلب منه قوته وأصبح لا يستطيع مقاومته، فكما يرى دائما أن النوم هو اللص الذي نسلمه أنفسنا بكامل إرادتنا ولا نستطيع الفكاك منه، بل وفي كثير من الأحيان نسعى نحن إليه، حتى يلتهم العمر التهاما، الأمر الذي كان يدفعه دائما لأن يقول: "لو كان النوم رجلا لذبحته".

ولكن ما كان يلفت نظره وانتباهه أنه يجد كل يوم

مقعدا من مقاعد الأتوبيس قد فرغ، وكلما سأل عن السبب يعلم أن صاحبه قد مات، وتكرر معه هذا الأمر حتى أنه أزعجه، ولكنه لم يزعج أحدا غيره، وتساءل في نفسه:

"هل لأنهم اعتادوه؟ أم أن كل واحد منهم أصبح يجلس بانتظار دوره في النزول من هذا الأتوبيس؟".

وتملكه خوف شديد وثمة قشعريرة باردة سرت في جسده، عندما يتخيل نفسه وقد جاء دوره في النزول والرحيل، ولكن دون إرادة منه في ذلك، واستحال الأتوبيس إلى جحيم لم يعد يطيق الوجود فيه، وصار كل الموجودين من حوله في نظره كالأشباح وكأنهم قد ماتوا وشبعوا من الموت. وازداد توتره وأخذ يلتفت حوله بسرعة هستيرية وهو ينظر إليهم محاولا التأكد إن كانوا أحياء أم أموات، ولكن ملامحهم الجامدة لم تعطه أي مؤشر. بالفعل أصبح لا يستطيع أن يفرق أو يميز، وازداد انفعاله ووصل توتره إلى ذروته، وسرى القلق في أوصاله كأسراب النمل، حتى وجد نفسه فجأة يصرخ فيهم صراخا عاليا اهتز له الأتوبيس، وانتظر رد فعلهم والتفاتهم إليه ليسألوه لماذا يصرخ هكذا، ولكن لم يرد عليه أحد، ولم ينتبه أحد إلى صراخه، وكأنه غير موجود وما نطق بشيء. ما ألعن هذا الصمت، إنه يكاد يقتله، يشعر وكأنه يلتف حول رقبته ويخنقه، فعزم وقال في نفسه:

"لا.. لن أستسلم لهذا الموت، المقاعد كل يوم يختفي

من عليها ومقعدي هل سيفقدني يوما ما؟ هل سأمضي هكذا وكأن شيئا لم يكن؟ وهل سيشعر أحد بأنني رحلت أم سيمضي الأتوبيس بعد نزولي منه، ويكمل رحلته بمن تبقى فيه وكأني لم أكن يوما من ركابه؟ لا.. لن أجلس معكم بعد اليوم، سأنزل الآن وبإرادتي أنا في النزول وفي غير محطتي، وبعد أن أنزل سأضع قوانين لي وحدي بعد أن أتحرر منه".

وقام من مقعده، ورغم أن الطريق نحو الباب كان فارغا تماما، إلا أنه شعر بثقل خطواته، وكأن قوة خارقة تمنعه من المضي، شعر أنها الصمت، وشعر أنها الموت، ولكنه ظل يقاوم تلك القوة الغامضة أمامه حتى استطاع أن يصل إلى الباب الأمامي وسط شرود كل الموجودين بمن فيهم السائق، وقفز من الأتوبيس ليتحرر منه إلى الأبد، وليحيا حياة يختارها بنفسه دون أن تُفرض عليه، وليهرب من الموت الذي يهدد كل ركابه في أية لحظة، ولكنه عندما قفز من باب الأتوبيس لم ينتبه إلى أنه كان يسير مسرعا في طريق مزدحم بالأتوبيسات، فقفز ليلقى حتفه تحت عجلات أتوبيس آخر.

وأد الأحلام

ليس كل ما يلمع ذهباً

- تحت أمرك يا فندم

لم يكن يخطر ببالي وأنا أقولها للزبون، الذي جلس لتوه إلى المنضدة، أنه الشاعر الكبير والشهير الذي أحفظ كل قصائده وأغانيه عن ظهر قلب، والذي طالما حلمت بلقائه ولو في آخر الدنيا، حتى أعرض عليه ما أكتبه من شعر وأغانٍ، فهو الشخص الوحيد الذي كنت أرى فيه الطيبة والشهامة، وأحس في كلامه الصدق أثناء حديثه في الحوارات الصحفية واللقاءات التلفزيونية التي كان يجريها، فينتابني شعور بأنه المنقذ الوحيد الذي سينتشلني من تلك الكافيتريا التي أعمل فيها جرسونا، بعد انتهائي من حضور محاضراتي بالكلية وحتى المساء أقدم المشروبات والشيشة للزبائن من مختلف الطبقات من النساء والرجال، وفي كثير من الأحوال يمر على من الشخصيات من يكرِّهني في نفسي وفي الدنيا، نظرا لما ألاقيه منهم من التعالي والـ"عنطزة" والشعور بالدونية التي تبث في نفسي، خصوصا وأنا لا أعامل نفسي على أنني جرسون، ولكن على أنني الجامعي المثقف والشاعر الفذ الذي تنتظره مصر لإنقاذ مستمعيها من الأذى الذي يصيب آذانهم، جراء سماعهم لكل ما هو هابط ومسف، ومما يسمى فن المهرجانات الذي انتشر في ربوعها كالسرطان، وعلى رأس هذه الشخصيات يأتي مدير الكافيتريا، الذي

يعاملني معاملة الرقيق في العصر الجاهلي، فكلما رآني أمطرني بوابل من الأوامر والنواهي والطلبات التي ما لها من داعٍ غير أن يُشعرني بالمهانة والمذلة، خصوصا بعد تلك الواقعة الشهيرة التي حدثت بيني وبينه، ويعلمها كل من يعمل معي في هذه الكافيتريا، والتي أصبحت كالنكتة يتداولونها فيما بينهم ليتضاحكوا عليها، ويُسمعوها لكل من يأتي للعمل معنا جديدا، وهي عندما طلب مني ذات يوم أن أنظف دورة المياه الصغيرة الموجودة بالكافيتريا، التي يستخدمها كل من هب ودب من زبائن الكافيتريا، وعندما رفضت ذلك لأنه ليس من اختصاصاتي، وأن تقديم الطلبات فقط هو مجال عملي، نهرني وقال لي إني أجير عنده أنفذ ما يطلبه مني، فواجهته بكلمات جعلته يستشيط غيظا عندما قلت له:

- أنا لست أجيرا عندك، بل أفضل منك ألف مرة، فسوف أصبح شاعرا كبيرا يتغنى بكلماته الناس جميعا، أما أنت فجاهل وأمي، وتناديني لأقرأ لك فواتير المياه والكهرباء.

ومنذ ذلك الحين وهو يضطهدني، ولم يرفتني من العمل حتى يثأر لكرامته مني، خصوصا أنه يعلم أن فقري وظروفي الصعبة تجعلني دائما في حاجة إليه، فاضطررت أن أتحمل سخافاته معي، خصوصا عندما يناديني أمام الزبائن بـ"الشاعر الفاشل" أو بـ"الشاعر بالمغص"؛ فأختلس النظر إليهم لأتبين وقع كلماته

عليهم، فأجد القليل منهم يتعاطف معي، بينما الأغلبية تتعالى ضحكاتهم التهكمية الساخرة، والتي تكون بمثابة السكاكين التي تقطع مشاعري وتؤلمني، فما خُلقت لأدفن في هذا القبر المفتوح، ولا لأعامل مثل هذه المعاملة، ودائما ما كنت أنظر إلى البحر من خلال نافذة الكافيتريا، وأغمض عيني وأتخيل نفسي، والناس ملتفين حولي يطلبون مني أن أوقع لهم كلمة للذكرى، أو يستضيفونني على شاشات التلفاز بمناسبة صدور أحد دواويني، وفجأة أستيقظ من حلمي السريع على صوت أجش يأتيني من خلفي بقذائف تعودتها على الرغم من قسوتها، تقول:

- واقف في بلكونة أمك وسايب شغلك يا شاعر آخر الزمان.

وتفاديا لأي صدامات، أنسحب من الموقف وأنصرف إلى عملي، بعدما أصحو من حلم جميل لا ينقطع عني في صحوي ولا في منامي، وعلى كابوس مفزع أيضا، لا ينقطع عني طوال فترة تواجدي في الكافيتريا.

ولكن ما يهون عليَّ بعضا من حدة ما أعانيه في هذه الكافيتريا، هي إيناس زميلتي في العمل وحبيبة عمري، فمنذ أن جئت إلى العمل هنا تولت هي تعريفي بالمكان وبطريقة العمل وتدريبي عليه، ومع الأيام ارتبطت قلوبنا بالحب وتعاهدنا على الزواج، وهي الوحيدة فيمن حولي التي ترى فيَّ ما أراه في نفسي، ودائما ما تصبرني على تحمل ما أعانيه، مؤكدة لي أنني ينتظرني

مستقبل مشرق وباسم، فقط لو أتيحت لي الفرصة، وها هي الفرصة قد جاءت حتى عندي دون أي ترتيبات مني لذلك، فالذي رأيته كان يفوق أي تصور من الممكن أن أتصوره، أن يأتي شاعرنا الكبير إلى محل عملي وأقابله بنفسي، ولا أعلم هل هو ترتيب القدر أم حسن الحظ، أنه أتى في الوقت الذي غادر فيه مدير الكافيتريا، فالفرصة أمامي متاحة لكي آخذ راحتي في الحديث معه دون خوف أو إرهاب من أحد، وعليَّ أن أستغلها أفضل استغلال. وبالفعل حاولت التحكم في أعصابي المتوترة، وفي أنفاسي اللاهثة من الفرحة والرهبة، وقلت:

- أنا أحب حضرتك جدا يا أستاذ، وأحفظ كل دواوينك.

فابتسم الرجل ابتسامة فتحت لي من الأمل أبوابا ظننت أنها قد أُغلقت إلى الأبد؛ ما شجعني على أن أندفع في الحديث قالا:

- منذ زمن وأنا أتمنى أن أقابلك.

بدا الاهتمام واضحا على ملامح وجهه، فاعتدل في جلسته وقال:

- خيرا إن شاء الله.

فقلت وكأني أنطق آهات لا كلمات:

- أنا اسمي ضياء، شاعر، وكتبت العديد من القصائد والأغاني، وأريدك أن تساعدني في نشرها لتنتشلني من هذا المكان، فما خُلقت لأكون هنا.

ظهرت الدهشة على وجهه، وقال متعجبا:

- ولماذا تعمل هنا طالما أنك شاعر؟

قلت ونغمات الأسى تعزف في صوتي:

- ظروفي تضطرني للعمل بجانب دراستي، لأتمكن من مساعدة نفسي حتى يحلها الحلال.

فابتسم الرجل ابتسامة إجلال، ثم قال:

- أنت شاب مكافح وعظيم، وبالتأكيد سيفتح النجاح أبوابه لك عما قريب.

فقلت والخجل والأمل يتزاحمان على وجهي:

- أتمنى أن تكون الباب الذي أدلف منه إلى هذا النجاح.

فقال وهو يخرج من حقيبته بعض الأوراق استعدادا للعمل، على ما بدا لي:

- إن شاء الله، اجمع كل ما كتبته في ملف وأحضره لي غدا، وسآتي إليك في نفس الموعد تقريبا، فما زال أمامي بعض الوقت في الإسكندرية، وإذا وجدت فيها ما يستحق النشر فلن أتأخر أبدا.

كانت فرحتي في تلك اللحظة لا تصور بالكلمات، فتهلل وجهي وأشرق بابتسامة لم يعرفها من قبل، وشكرته وذهبت لأجلب له ما طلبه من مشروب، وشاركتني إيناس فرحتي كما كانت تشاركني آلامي من قبل، وشعرنا بأن الفرصة التي طالما صبرتني حتى تأتي قد جاءت بالفعل، وأن الحياة قد بدأت تضحك لنا، وأخذتنا الفرحة لنتخيل أين سنعقد حفل زفافنا، وفي

أي المناطق سنسكن، وليس فقط هذا، بل وماذا سنسمي أبناءنا، وبقدر ما انتظرنا الفرصة طيلة السنوات الماضية انتظرنا أن يأتي الغد.

وجاء الغد بصدر منشرح وقلب طرد الأمل ما ترسب فيه من يأس، وجمعت كل قصائدي في ملف بعدما سهرت الليل كله أراجع وأصلح ما بها من أخطاء لغوية وتشكيلات، وجاء الشاعر الكبير في الموعد المحدد، وأعطيته الملف وفي نفسي شعور بأنني أعطيه شهادة ميلادي كشاعر، فأخرج نظارته الطبية ووضعها على عينيه وأخذ يقرأ أول قصيدة.

كنت أراقب ملامح وجهه جيدا لأرى أثر كلماتي عليه، وكنت أطمئن عندما أراه يبتسم ويهز رأسه في إعجاب، وبعدما انتهى من القراءة السريعة لمعظم القصائد أغلق الملف، وقال:

- عظيم، أنت بالفعل شاعر موهوب وعظيم، وأنا قررت أن أساعدك وأنشر لك ديوانك الأول، فأي إنسان سيكون له الفخر في يوم من الأيام أنه كان السبب في تقديمك للوسط الثقافي والفني، وليس هذا فحسب، بل وسأكتب له مقدمة أقدمك بها إلى الجماهير.

كانت تلك الكلمات أكثر سحرا من الأحلام التي كنت أحلمها من قبل، وأخذ الشاعر الكبير الملف وسافر إلى العاصمة، بعدما أخذ رقم هاتفي المحمول ووعدني بالاتصال بي بعد أن يجد لي ناشرا. ولم تطل غيبته، وبالفعل فوجئت باتصاله بي يبلغني بأنه قد وجد ناشرا

ينشر لي الديوان، وأنه سيصدر في معرض الكتاب المقبل، وسوف يرسل لي بالبريد حوالة بأول مبلغ أتقاضاه من شعري. وكمن عادت إليه روحه بعد غيبوبة دامت طويلا، تلقيت الخبر وذهبت بعدها لأتسلم الحوالة البريدية، بعد أن نشرت الخبر بين الأقارب والمحبين والأصدقاء.

وجاء وقت معرض الكتاب، واصطحبت إيناس وسافرنا إلى العاصمة، وما أن وطأت قدماي أرض المعرض حتى أخذت ضربات قلبي تتزايد من الفرحة وتتلاحق أنفاسي، فأنا على بعد خطوات من شهادة ميلادي التي انتظرتها طويلا، وأخذت أفكر كيف ستقابلني الجماهير في حفل توقيعي الديوان، وماذا سأقول لهم.

وما أن وصلنا إلى دار النشر التي نشرت لي الديوان، حتى وقعت عيناي على عنوان الديوان "وأد الأحلام"، فجريت نحوه والفرحة تكاد تصيبني بالجنون، وأمسكت به كمن يمسك بمولوده الأول، وأخذت أدور حول نفسي كفراشة صغيرة، ما لفت أنظار زوار المعرض. وما أن توقفت عن الدوران وتفحصت الكتاب جيدا، حتى شعرت بأن بركانا من الدماء انفجر فجأة في رأسي، عندما بحثت عن اسمي فلم أجده، ووجدت عليه اسم الشاعر الكبير.

الدخـــان

عندما يصبح الميراث دخاناً

اضطربت الحركة في البيت، واجتمعت كل العائلة والتفَّت حول سرير جدي المريض كما أمر، ثم جال جدي ببصره بين كل الوجوه الموجودة حوله، وما أن وقع بصره عليَّ حتى ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة باهتة لم يستطع أن يكملها، ثم ناداني، وعندما دنوت منه أمسك يدي بيده المرتعشة، وأجلسني بجواره. كنت أشعر أن النهاية قد اقتربت، وكلما أخذ جدي نفسا كنت أظن أنه لن يخرجه مرة أخرى، ورغم ذلك ضغط على يدي بقوة، وقال:

- أنت أملي، أنت من سيكمل مسيرتي.

نظرت إلى كل الموجودين من حولي، نظرات استفهام، ثم سألته:

- كيف يا جدي؟

تملكه السعال للحظات، وبعد أن انتهى قال لي بصوت منهك:

- أنت من ستحمل رايتي، سأهديك هدية ورثتها عن جدي.

وأشار لي بيده المرتعشة إلى مكتبته الضخمة، وقال:

- حافظ عليها محافظتك على شرفك، ولا تفرط فيها فأنت الغد، وهي زادك إلى الغد.

كنت لا أفقه كثيرا مما يقول، فالموقف مهيب. جدي الذي أحببته أمامي يحتضر، وجميع أفراد العائلة من

الأعمام والعمات يلتفون حولي ويصوبون أنظارهم نحوي، أنا الصغير، وإلى ما يمليه عليَّ جدي.

وأعاد جدي الضغط على يدي مرة أخرى بقوة حتى أنها آلمتني، ولكن الضغط أخذ يخف عن يدي شيئا فشيئا حتى تلاشى، وهنا علا صراخ عماتي عندما سقطت يده من يدي بعد أن سلمني الراية، وعهد إلى العهد. وسكن الحزن أركان البيت أياما وأسابيع وشهورا، حتى بدأت أصوات الحياة تطرد صمت الحزن من جدران البيت. وصنعتُ مكتبة جديدة كبيرة ووضعتها في صالة البيت، جمعت فيها آلاف الكتب التي أهداها لي جدي قبل موته، ورتبتها بحرص ونظام، ورغم أنني لا أعلم عما تتحدث تلك الكتب، لكني كنت دائما أقول لنفسي إنه بالتأكيد سيأتي يوم وأعرف، المهم أن أحافظ عليها محافظتي على شرفي كما قال لي جدي.

ورغم صراعي الدائم مع أمي عليها، واعتراضها على أنها تشغل حيزا كبيرا من الممكن أن نستغله في شيء آخر مفيد غير تلك الكتب الصفراء القديمة، لكنني كنت دائما أقول لها إنها وصية جدي، ولابد من تنفيذها.

وفي يوم من الأيام، عدت من المدرسة ولم أجد المكتبة في مكانها بصالة البيت، ولم أجد الكتب التي كانت بها، وقد استُبدلت المكتبة ووُضعت مكانها منضدة عليها كمبيوتر جديد. ونفذت إلى أنفي رائحة دخان؛ فهرعت إلى الخارج، ووجدت مكتبة جدي وُضعت بالكامل في الخلاء، والنار تلتهمها في شهية ونهم،

والواقفون من حولها يلقون بالكتب فيها لاعنين أيامها القديمة. كنت أصرخ فيهم، ولكن لم يلتفتوا لصراخي. الكل يلقي بالكتب دون وعي منهم بصوتي. وكنت أنظر إلى الدخان المتصاعد في حزن إلى السماء، ويرن في أذني صوت جدي وهو يوصيني بالراية، ومنذ ذلك اليوم انقطعت آخر صلة كانت تربطني بجدي.

حافية على الجمر

وما زالت سندريلا تبحث عن حذائها

"وكأن الشمس أشرقت بعد ليلة شديدة الظلام".

هكذا يكون الحال عندما يظهر وجه عفاف المشرق في طرقات القرية، فتتهلل الوجوه فرحا لرؤيتها، وترتسم الابتسامات على شفاه كل من يقابلها؛ فالجميع يحبها صغارا وكبارا، حيث الجمال الذي يزينه الأدب والخجل، وما كان يزيد من خجلها وتورد خديها أن زفافها الليلة على حسن، الحلم البعيد الذي ظل يراودها منذ صباها، والذي ظل دفين قلبها. فمنذ ذهاب حسن إلى العاصمة لإتمام دراسته الجامعية بكلية الطب، كان ينتابها شعور بأنه ذهب ولم يعد، ولكن القدر كان له رأي آخر، فلقد عاد حسن طبيبا، ليبدأ رحلة حياته في قريته ولمساعدة أهلها، واختار عفاف لتكون هي نقطة البداية في رحلته، فالكل أجمع على أنها أجمل فتيات القرية ومثال للطهر والعفة، وأن لها من اسمها نصيبا كبيرا.

كانت عفاف في طريقها للخيَّاطة، وكان جمالها وهي تمشي يزيد النهار نهارا، وكل الكائنات الحية وغير الحية تشاركها فرحتها، ويحمر وجهها عندما تتلقى التهاني من أفواه المارة من أهل قريتها، حتى النباتات كانت تتمايل على الجانبين وهي تمر بجوارها تعبيرا عن فرحتها بها. ورغم أن الفرحة كانت تدب في قلوب كل الناس، إلا أنه كان هناك قلب يئست هذه الفرحة من الدخول إليه.

ضغط أمين على كوب الشاي الواقع في قبضة يده

بغيظ وغل، حتى تفتت الكوب وتناثر الزجاج من حوله، بعدما سمع بأن عرس عفاف الليلة، بعدما كتموا عنه الخبر حتى يفاجأ به ويصبح أمام الأمر الواقع؛ فهي ابنة عمه وهو أولى بها، كما كان يقول لهم دائما، كما أنه أولى بإرث أبيها من الغريب. وأخذ يتذكر كل مطارداته لها في كل مكان حتى يوقعها في حبه، ولكنها كانت تبوء بالفشل وترد بالرفض، وزاد جنونه عندما علم أن الدكتور حسن هو العريس الذي فضلته عليه، فقام ونظرات الشر تتقافز من عينيه، وذهب إلى بيت عمه ليتأكد من الخبر.

كانت عفاف عائدة من عند الخيَّاطة، فانطفأت الفرحة في وجهها وتحولت إلى دهشة واضطراب، عندما قابلت أمين على باب البيت، فألقى إليها التهنئة بسخرية، وتفاديا لأية مناقشة معه حاولت الفكاك منه، إلا أنه اعترض طريقها، وسألها عن سبب تفضيلها لهذا الدكتور عليه، فقالت:

- فرق السماء والأرض بينك وبينه، هو الأخلاق والاتزان، وأنت الانحلال والتسكع مع غوازي الموالد، هو العلم والمستقبل، وأنت الجهل والتخلف.

فاشتاط غيظا وأمسك بذراعيها الرقيقتين بعنف، حتى كاد أن يكون مصيرهما مصير كوب الشاي، وقال:

- إذا لم ترجعي عن قرارك هذا وتوافقي على الزواج مني، سأحرمك منه إلى الأبد.

وتركها وذهب، فدخلت إلى بيتها وارتمت في حضن

أمها والدموع في عينيها كمطر الشتاء المنهمر من سماء ملبدة بالغيوم، خوفا على حسن.

وجاء الليل، وجاءت معه أصوات الفرحة من كل أرجاء القرية. ونُصب صوان كبير أمام البيت، اجتمع فيه رجال القرية حول الرجل الذي يرقص بالحصان، وبينهم الدكتور حسن يرقص معهم، بعدما أصرَّ والده على أن يرتدي جلبابا وليس بدلة.

وفي داخل البيت، تكدست النساء وتعالت أصواتهن غناء ورقصا. وفي غرفة العروس، كانت عفاف قد انتهت من ارتداء الفستان الأبيض وتستكمل باقي زينتها، وكانت الفتيات يقرصنها من ركبتيها حتى يأتيهن النصيب، بينما كانت عفاف ترسم بصعوبة ابتسامة باهتة على وجهها، تداري خلفها ألف دمعة خوف وقلق من أمين.

وبعد الانتهاء من كامل زينتها، طُرق باب غرفتها، فذهبت إحدى الفتيات من صديقاتها لتفتح، ودخلت وفاء جارتها التي كانت على خصومة دائمة معها، لسوء سلوكها ورقصها في الموالد والأفراح دون علم زوجها الكهل، تحمل بين يديها صينية عليها أكواب الشربات، ووزعت على كل الموجودات وناولت عفاف كوبا مميزا، وهي تغمز لها بعينها بخبث ووقاحة تعهدها عفاف منها.

- اشربي يا عروسة، ستشربين الليلة حتى ترتوين.

فتعالت أصوات الفتيات بالضحك، وعضت عفاف على شفتها السفلي وتورد وجهها بحمرة الخجل، ثم قامت

إحداهن وقالت:

- سأذهب لأخبر أبيك أنك قد انتهيت وأصبحت جاهزة.

وتبعتها باقي الفتيات حتى يتممن ارتداء ملابسهن، ولم يتبق معها سوى وفاء.

وبعد دقائق قليلة مرت في الحديث مع وفاء، شعرت عفاف فجأة بدوار شديد، وانتابها شعور بالغثيان، وأحست بالغرفة تدور من حولها، فلم تتمالك نفسها وسقطت على الأرض؛ فهرعت إليها وفاء وسألتها ماذا بها، فردت عفاف بكلام غير مفهوم نظرا لبدء غيابها عن الوعي، لكن وفاء فهمت منه أنها "دائخة ولا تستطيع فرد طولها"، وغابت عن الوعي. هنا ابتسمت وفاء في نفسها ابتسامة نصر، ولمعت عيناها بنظرات المكر التي عُرفت بها، وتمتمت في نفسها قائلة:

- ما أجمل طعم الشربات عندما يُحَلَّى بالمخدر.

وحاولت جاهدة أن ترفعها من الأرض وتسندها إلى كتفها، وتجرها إلى النافذة التي تطل على الأرض الزراعية الموجودة خلف البيت المكون من طابق أرضي واحد. وما أن فتحت النافذة وأطلقت صفيرا هادئا، حتى ظهر لها وجه أمين وفي عينيه لمعة مكر لا تختلف عن لمعة عينيها، وتلقفها منها، وقفزت هي الأخرى وأغلقت النافذة من الخارج.

كان أمين يحملها بين ذراعيه كمن يحمل فريسة اقتنصها، ووفاء تتبعه من الخلف، وهما يمشيان في

الأراضي الزراعية، ويتخذان من الليل ستارا لهما، ولا شيء يُسمع في هذا الظلام سوى صفير الصراصير ونقيق الضفادع، بالإضافة إلى دقات قلب أمين، التي تدق بفرحة من ظفر بوجبة اشتهاها كثيرا، ولم يتبق على التلذذ بأكلها سوى لحظات. وعندما وصلا إلى سيارته الجيب أجلسها فيها، وقبل أن يركب أخرج من جيب جلبابه رزمة من النقود وأعطاها لوفاء، فضحكت ضحكتها الخليعة، وقالت قبل أن تمشي:

- سأرحل أنا، وسأنتظرك في المكان المتفق عليه لنترك القرية وتغادرها قبل الصباح.

ثم غمزت له بعينها وقالت:

- بالهنا والشفا، غزالتك المشتهاة أصبحت بين يديك.

فابتسم ابتسامة كشفت عن أنيابه القذرة، ثم ركب سيارته وانطلق بها.

وفي مكان زراعي فسيح ومظلم كظلام قلبه، أنزلها وضمها إليه وهي ما زالت غائبة عن الوعي وقال:

- لن يكون الدكتور حسن أول من يتذوق شهد شفتيك.

وككلب جائع أخذ أمين يلتهم شفتيها بحركات بهيمية، بدأ على إثرها عقل عفاف يستعيد جزءا من إدراكه، ودرجة درجة دخلت عفاف مرحلة الإدراك الكامل، ففتحت عينيها ليقابلها وجه طالما كانت تقشعر كلما نظرت إليه، وبلهفة وفزع أخذت تنظر حولها فلم تجد إلا ظلاما، فافتر ثغره عن ابتسامة قذرة وقال:

- ما أجمل أن أتلذذ بك وأنت مستيقظة، فهذا سيزيد متعتي متعة أخرى.

وكمن ينزع الشوك من الحرير، انتزع أمين منها قبلة عنيفة. وكمن يحاول ليَّ الحديد، حاولت عفاف أن تخرج من بين ذراعيه، وأخذت تصرخ صراخا اهتزت له الأرض وتمزقت له الزهور، ولكن شعرة واحدة لم تهتز فيه، وأخذ يرد على صراخها بضحكات هستيرية قائلا:

- لن يصل صراخك إليهم، لقد ملأت أسماعهم أصوات الموسيقى والغناء، أنا فقط الذي سأسمعك وتسمعينه.

وكذئب جائع انقض عليها يلتهمها، وهي تدافع وتدافع وهو يلتهم ويلتهم، وظلت تدافع وظل يلتهم حتى فقدت القدرة على الحركة. كان الشعور المسيطر عليها وقتئذ أن روحها تُسلب منها، وكانت كل اندفاعة منه داخل أحشائها بمثابة سكين حاد يمزق فيها. وبعد وقت غير قليل، قام من عليها وإحساس بالنصر يملأه، ووضعها في السيارة وانطلق بها، وعلى مسافة من بيتها ألقاها من السيارة واختفى. وبصعوبة بالغة حاولت عفاف النهوض مستندة لى الأشجار والدماء تلطخ فستانها الأبيض، ومن خلف أعواد الذرة. رأت الصوان الكبير المنصوب أمام البيت ويضم أهل القرية، وجاءتها صورة عريسها الدكتور حسن، والرجال يرفعونه على الحصان ليرقص به، وازدادت الحيرة بداخلها: كيف ستعود؟ وماذا ستقول لهم؟ وهل سيصدقونها؟ سيل من الأسئلة أخذ يتدفق بداخلها حتى انهمرت في البكاء.

في ذلك الوقت، كان أبوها لا يزال يطرق عليها الباب، بعدما تأخر في الصعود إليها بعدما أخبرته صديقتها بأنها قد انتهت من زينتها، بسبب استقباله لبعض المعازيم الذين جاءوا من قرى بعيدة، ولكنه طرق الباب كثيرا ولم يجد استجابة، فازداد القلق بداخله ودفع الباب بقوة، وفوجئ عندما لم يجدها بالغرفة، وبسرعة انتشر الخبر بين الحاضرين جميعا وبدءوا في البحث عنها.

في هذا الوقت، كانت عفاف قد قررت عدم الرجوع إليهم ورأت أنه الحل المناسب؛ ففضيحة الهروب أفضل ألف مرة من فضيحة هتك العرض والشرف. وتحاملت على نفسها وظلت تمشي رغم ألمها الشديد الذي تشعر به، وظلت تسير وتسير إلى أن وجدت نفسها على شريط القطار الذي يمر من قريتهم. وبين القضبان ظلت تمشي وتتعثر قدماها في الحجر، وهي حافية كمن يمشي على جمر بلا إرادة منه إلى طريق مظلم ومجهول، ولكنها فوجئت بقطار البضائع يقف على مرمى بصرها ينتظر مرور قطار آخر، فأسرعت الخطى إليه، وبجهد غير قليل حاولت تسلقه وارتمت فيه، وما هي إلا لحظات حتى غرقت في نوم عميق وانطلق بها القطار.

كان الأمل في العثور عليها قد بدأ يتبدد في نفوس الأهل والجيران. وعندما التقت عينا أبيها بعيني الدكتور حسن، وضع أبوها وجهه في الأرض خجلا وخزيا من

هذا العار الذي ألحقته ابنته به، ولكن الدكتور حسن ربَّت على كتفه وذهب إلى المأمور ليبلغه بما حدث.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجرا عندما وصل قطار البضائع إلى العاصمة، فاستيقظت عفاف مفزوعة، وبذلت جهدا في النزول لا يقل عن جهدها الذي بذلته في الصعود، وحاولت التخفي في الشوارع والأزقة المظلمة، وهي لا تدرى إلى أين تذهب وأي مصير ينتظرها.

وبعد أن قطعت مشوارا طويلا، فوجئت بنفسها في ميدان كبير علمت من اللافتات أن اسمه "ميدان التحرير". كان مزدحما بالناس والسيارات والأتوبيسات والأضواء، ولاحظت أن الناس لا ينظرون إلى بعضهم البعض وكلّ ماض في طريقه، إلى أن فوجئت بفتاة قادمة إليها ترتدي القصير والضيق، ووجهها ملطخ بالألوان، وتحت أسنانها البيضاء تتحرك لبانة تلوكها بشيء من الإغراء، ووقفت على مقربة منها، وأخذت تنظر إلى عفاف نظرة كلها تحدٍّ وانتصار، بينما كانت عفاف تنظر لها نظرة كلها خوف وانكسار.

هل يأتي إلينا القدر أم نذهب نحن إليه؟ تساؤل

- في الوقت الذي جئت فيه إلى الدنيا رحلت أمك عنها...

هكذا قال عم السيد إلى أحمد، وهو يطلعه على السر الذي داراه عنه طيلة السنوات الماضية، ثم أردف يقول:

- كانت أمك تعمل مربية عندنا، ترعى أطفالي، وتساعد زوجتي في تنظيف البيت، وكنا لا نعرف لها أصلا أو عائلة، وفي فترة من الفترات غابت عنا مدة طويلة تقدر بنحو عشرة أشهر أو يزيد، وظننا أنها قد وجدت من تزوجها وآواها، وفي ليلة من ليالي شتاء الإسكندرية القارس، وجدنا من يطرق علينا الباب، وكانت أمك. فوجئنا بها حامل، وكانت في حالة يرثى لها، حيث كانت لا تستطيع الوقوف وسقطت على الأرض مغشيا عليها. نقلناها إلى إحدى الغرف وأحضرنا لها طبيبا، واشتدت عليها آلام المخاض، وما هي إلا دقائق حتى سمعنا صوت صراخك، وكنا لا ندري هل كنت تصرخ فرحا بقدومك للحياة أم حزنا على فراق أمك، التي ماتت بعد ولادتك بقليل.

كان أحمد يسمع عم السيد والذهول يملأ عينيه، ويأبى عقله تصديق كل ما يُقال، فبعد أن تربى في هذا البيت لمدة خمسة عشر عاما بين أسرة كان يظن أنه واحد منها، أبوه السيد وأمه وأختيه ملك وسارة، فجأة وبدون مقدمات أصبح غريبا عنهم. حاول أحمد أن يقول

بصوت متحشرج وبدمعة تقف على طرف عينه:

- ومن يكون أبي إذن؟

فقال عم السيد آسفا:

- لا ندري يا ولدي. لقد ماتت أمك قبل أن تخبرنا بأي شيء سوى أن اسمه عاطف سرحان الدرمللي، وكانت آخر كلمة قالتها بعدها: "أحمد أمانة في رقبتكم، خللوا بالكم منه"، وكأنها أرادت أن تخفي عنا حقيقة أبيك حتى لا نتخلى عنك وتظل بين أيدينا.

مسح أحمد دمعة فرت من عينه، وقال:

- ولماذا لم تخبروني من قبل؟ لماذا تركتموني أعيش بين أحضانكم؟

فقال عم السيد:

- حفظا للأمانة التي وضعتها أمك في رقبتنا، بالإضافة إلى أنه لم يكن لك أحد غيرنا.

فقال أحمد وقد تبدل الذهول بداخله إلى ألم ومرارة أحس بها في حلقه:

- كان من الأهون على أن أتربى شريدا في الشوارع، على أن أتربى في أسرة تحوطني بكل الحب والحنان ثم أُنتزع منها فجأة.

هنا لم يستطع عم السيد حبس دموعه أكثر من ذلك، وقال:

- كنا فرحين بك أشد الفرح، وكنا نقول إن الله قد عوضنا بالولد الذي حُرمنا من خلفته، ولكن..

وسكت فجأة، فتعجب أحمد من سكوته وحثه على أن يكمل، فقال:

- ولكن ماذا؟ تكلم أرجوك.

جاهد عم السيد قبل أن ينطق بها، وأطلقها كالقذيفة:

- ولكن لم يعد من الممكن أن تظل معنا.

صدمت أحمد الجملة، ولكنه يوم الصدمات، ولم يرد إلا بنظرة يملأها العتاب، ولم يتحمل عم السيد تلك النظرة؛ فأسرع يقول:

- لقد سألنا أحد المشايخ عن رأي الدين في وجودك مع فتاتين في بيت واحد دون أن يكون لك بهما رابطة أخوة؛ فقال لنا إن هذا لا يجوز شرعا.

سأله أحمد، وقد تملكته الحيرة:

- وما العمل الآن؟

فأجاب عم السيد على استحياء:

- سننقلك إلى ملجأ لرعاية الأيتام، وهناك ستتلقى الرعاية والعناية، وستكمل تعليمك، ونحن لن نتركك وسنزورك بصفة دائمة.

لا يدري أحمد كيف مرت تلك الليلة حتى جاء الصبح وحان وقت الفراق.. فراق البيت الذي وُلد وتربى فيه، وفراق السيدة التي طالما ضمته في حضنها الدافئ، والتي كان يظنها أمه، وأن له في حضنها نصيبا إلى الأبد، وأختيه الصغيرتين لن يلعب معهما مرة أخرى، وليس من حقه احتضان أي واحدة منهن، وعم السيد الذي لا يعرف له أبا سواه، والذي حمل حقيبته ووقف

أمام الباب، وكان أحمد يسلم على ملك وسارة، ولم يتعانقوا بأجسادهم رغم رغبتهم في ذلك، ولكن تعانقت أرواحهم البريئة. وعندما وقف أمام أمه التي ربته، لم يستطع منع نفسه من أن يلقي بنفسه في أحضانها، وانفجر في البكاء. وكمن ينتزع جذور شجرة كبيرة من أرض يابسة، نزع نفسه من حضنها، وخرج مع عم السيد وهو لا يدري أي حياة تنتظره. ومن وداع الأسرة إلى وداع عم السيد، الذي احتضنه عند باب الملجأ ثم تركه وانصرف ودموعه على خديه.

ولم يجد الصبي أمامه إلا أن يستسلم لقدره، فترك يده ليد المشرفة، التي أخذته لتريه العنبر الذي سيسكنه وسريره الذي سيؤيه، والذي علم أنه قد حُجز له منذ شهر، أي أنهم كانوا يستعدون لرحيله وهو لا يدري.

وعندما دخل العنبر، طالعته وجوه لصبية في نفس عمره يملأون العنبر لا يعرفون لهم أبا أو أما. كان يختلس النظر إليهم ورعشة تسري في كامل جسده، حتى وصل إلى سرير قالت له المشرفة إنه سيكون خاصا به. وقبل أن تتركه، أوصت الجميع بصوت عالٍ ألا يتعرض أحد منهم بسوء إلى الضيف الجديد، وأن يحسنوا ضيافته، ثم تركته وانصرفت.

وضع حقيبته بجوار السرير، وجلس مسندا ظهره إلى الحائط والذهول ما زال يتملكه، وسرح بخياله يتذكر نومته الدائمة في سريره في بيت عم السيد، عندما كانت له غرفة بمفرده، أما الآن فهو ينام في عنبر

كالمساجين. وفجأة قطع خياله نزول رأس لصبي في مثل عمره من السرير الذي يعلو سريره، قائلا:

- نوَّرت الملجأ يا صديقي.

وبعد محاولة منه لاسترداد أنفاسه، قال أحمد:

- منوَّر بأهله.

وبحركة صبيانية قفز الصبي فجأة إلى سرير أحمد وقال:

- اسم الكريم إيه؟

- أحمد .

- أخوك رفيق، خمسة عشر عاما. اتولدت لقيت نفسي هنا. أنت بقى إيه اللي جابك وأنت كبير كده؟

- هذه حكاية يطول شرحها.

- نسمعها، إحنا ورانا إيه؟

وفوجئ أحمد بالتفاف كل صبية العنبر حول سريره، مرحبين به ومتوددين إليه وشغوفين لسماع قصته، وبدأ يرويها لهم من البداية.

ومنذ ذلك الحين عاد إلى أحمد شيء من الإحساس بدفء الأسرة الذي كان قد فقده، ووجد بين هؤلاء اليتامى قلوبا صافية ومشاعر صادقة، خصوصا رفيق، الذي توطدت العلاقة بينهما مع مرور الأيام، حتى انتهيا من دراسة السياحة والفنادق بأحد المعاهد، وأصبح لزاما عليهما ترك الملجأ الذي آواهما وتربيا بين جدرانه، فاستأجرا شقة صغيرة ليعيشا بها، وعملا مضيفين على إحدى البواخر الكبيرة، التي كانت تسافر بهما إلى

اليونان، وهناك كانا يختلسان بضع ساعات للفسحة والتنزه في شوارعها، ثم العودة مع الباخرة مرة أخرى إلى الإسكندرية.

وفي مرة من تلك المرات، والباخرة في طريقها إلى اليونان، أعلن أحمد قراره إلى رفيق بعدم رغبته في العودة إلى الإسكندرية وتفكيره في البقاء باليونان للعيش والعمل، وكانت صدمة لرفيق، الذي عارضه قائلا:

- وها تشتغل إيه هناك؟

- زي هنا.. مضيف في أي مكان.

- وها تعيش مع مين وأنت مالكش حد هناك؟

- هي هي.. يعني أنا كان لي مين هنا؟

وواصلا العمل على خدمة ركاب الباخرة والصمت سائد بينهما، حتى وصلت الباخرة إلى اليونان وحان وقت تنفيذ القرار، فنظر رفيق إلى أحمد بعينين تملأهما الدموع، وقال:

- هل ما زلت مصمما على رأيك؟

- ليس أمامي حل آخر.

فقال رفيق والدموع قد انهمرت على خديه:

- لقد اعتبرتك تعويضا لي من الدنيا عن أهلي الذين لم أرهم.

وقفزت دمعة من عين أحمد قبل أن يقول:

- لقد تعودت على شيئين ظلا مرافقين لي طوال حياتي؛ الوحدة والفراق، ولا أحد يعلم إلى أين يأخذه مصيره وقدره، وليس بعيدا أن يجمعنا مرة أخرى.

والتحما في عناق حار وطويل.

وبعدها دبت أرجل أحمد أرض أثينا، ولكن هذه المرة ليس متنزها بل لاجئا، وظل يجوب شوارعها وأزقتها وهو لا يدري إلى أين سيذهب وأين سيأكل وينام.

وانتشر الليل في السماء وانعكس سواده على الأرض، ولكن ما كان يبدد بعضا من سواده أضواء المحال المنتشرة في كل مكان. كان يمشي بين الناس متأملا كل ما يقابله، وظل يمشي ويمشي أياما وأياما، حتى فترت قوته ودميت قدماه دون أن يجد مكانا للعمل أو للسكن، فألقى بجسده على كرسي خشبي ليستريح عليه، وما أن بدأت قدماه تستريحان حتى شعر بالجوع ينهش أحشاءه، وقد نفدت كل نقوده، فوقعت عيناه على قطة تأكل بنهم في لفافة ورقية، وما أن اقترب منها حتى خافت وجرت، فأمسك باللفافة فإذا بها بقايا شاورمة، ألقى بها أحد المارة بعد أن شبع منها. وبنهم لا يقل عن نهم القطة، أخذ يأكل حتى انتهى منها، وعاود السير مرة أخرى بحثا عن مأوى حتى الصباح.

ظل أحمد شريدا في شوارع أثينا هكذا بلا طعام ولا مأوى، حتى يئس من الحياة. وأثناء عبوره أحد شوارع العاصمة، صدمته سيارة مسرعة تقودها امرأة عجوز، فسقط على الأرض، وكان آخر ما لمحته عيناه قبل أن يغيب عن الوعي، أناس متجمعون حوله ينطقون بكلام غريب لم يفهم منه شيئا.

عندما بدأ أحمد في تحريك عينيه، كان ذلك في صباح

اليوم التالي، وكان على مشهد مثل آخر ما رآه قبل أن يغيب عن الوعي، حيث وجد نفسه نائما وحوله أناس غريبون، ولكن هذه المرة كان نائما على سرير مريح. حاول التحرك فآلمه ظهره، وحثته المرأة العجوز على عدم الحركة، ولكنه لم يفهم ما قالت، وسرعان ما فطنت المرأة لذلك، فسألته هل يجيد الإنجليزية، فأومأ لها برأسه، فانفرجت شفتاها ببسمة فرح، وقالت بإنجليزية غير سليمة:

- نحمد الرب على سلامتك. لقد أكد الطبيب عدم وجود ما يخيف. فقط بعض الكدمات وسرعان ما ستزول.

سألها أحمد والخوف ما زال مسيطرا عليه:

- من أنتم؟ وأين أنا؟

فجلست العجوز بجواره وربتت على كتفه بحنو ذكره بأمه التي ربته، وقالت:

- أنت في بيتي. لقد كنت أقود سيارتي بسرعة حتى ألحق بحفيدتي التي كانت بمفردها في البيت، وخوفي عليها كان السبب في أنني صدمتك.

شعر أحمد بنبرة صدق وحنو في صوتها، واستراحت نفسه لها.

ومرت عدة أيام حتى شُفي وأصبح قادرا على الحركة، وفي هذه الأثناء كانت تلك العجوز قد عرفت منه قصته كاملة، وتعاطفت معه كثيرا، وطلبت من ابنها الوحيد أن يبحث له عن عمل في أحد المطاعم الكبيرة التي

يملكها، وبالفعل شاء القدر لأحمد أن يجد عملا ومسكنا في غرفة بحديقة الفيلا التي تقطنها المرأة العجوز، التي أصبحت بمثابة أمه.

ومرت الأيام، وبسبب إصرار وعزيمة أحمد في تحقيق ذاته، تفوق في عمله وترقى في الدرجات، وساعدته في ذلك دراسته للسياحة والفنادق. ولكن سكن الحزن فجأة في بيت وقلب المرأة العجوز عندما سمعت بوفاة ولدها الوحيد، بعد أن تمكن منه السرطان الذي كان يخفي عليها إصابته به. وتحمل أحمد مسؤولية المطاعم كلها بمفرده، ووكلته العجوز في الإشراف على كل ما تملك بعد أن أصبح ابنا حقيقيا لها، وكانت دائما تجده عند حسن ظنها به. ولمع نجم أحمد وزادت شهرة المطاعم على يديه في المدينة كلها، حتى أخرج له القدر من جعبته مفاجأة جديدة.

أما آن الأوان لذلك القلب اليتيم الذي لاقى من الهوان والمشقة ما لاقى، أن يرطب قلبه بحب فتاة تملأ عليه حياته وتعوضه ما لاقاه من بؤس وحرمان؟ شعر أحمد بأن الأوان قد آن عندما رآها لأول مرة تدخل المطعم مع أبيها وأمها، ويطلبون العشاء. أول ما لفت أحمد لها كانت تلك العينين الخضراوين، فابتسمت له وابتسم لها، ووجد أن الفرصة سانحة للتعرف عليها، فذهب إليهم وحياهم، وتمنى عليهم أن يكونوا قد استمتعوا بالخدمة في المطعم، فأبدى الأب والأم إعجابهما الشديد بالمطعم وشهرته التي امتدت إلى جميع الجاليات الموجودة في

اليونان، فنظر أحمد إليها وقال بيونانية قد أتقنها:

- أتمنى أن يكون رأي الأميرة كذلك أيضا.

فعلت وجهها ابتسامة مضيئة، وقد أخجلتها لهجته الرقيقة، وقالت:

- بالطبع، فلقد عشقت هذا المكان.

وتكررت زياراتهم للمطعم، وكان أحمد يشعر من داخله بأن تلك الزيارات تكون برغبة منها وليس من أهلها. وتكررت أيضا التحيات والنظرات والابتسامات، ولاحظ الأبوان كما لاحظت المرأة العجوز لمعة عين أحمد في الفترة الأخيرة، وإقباله على الحياة والعمل بقلب مفتوح.

وتصادف وجود المرأة العجوز في المطعم لزيارة أحمد والاطمئنان على سير العمل، ووجود أسرة الفتاة هناك، وعلمت من نظرات أحمد سر سعادته، ففاجأته بأنها ستخطبها له، ولم يعارضها. وبالفعل قامت العجوز بزيارتهم في فيلتهم ومعها أحمد، وتمت الخطبة، وفرح أحمد عندما علم أن سالي مسلمة مثله، لأبيها الذي علم أنه من أصل عربي، وقد هاجر إلى اليونان منذ سنوات عديدة.

وشعر أن الدنيا قد بدأت تضحك له، بعدما لاقاه منها طوال سنوات عمره الماضية. وجاء موعد عقد القران بأحد المراكز الإسلامية بالمدينة، وسأل المأذون أحمد عن اسمه بالكامل، فقال كما أخبره به عم السيد:

- اسمي أحمد عاطف سرحان الدرمللي.

هنا قفز والد الفتاة والدهشة تكسو ملامح وجهه، وقال بالعربية وبالعامية المصرية:

- مش ممكن، مش معقول، أنا عاطف سرحان الدرمللي!!

الخيط المتهالك

لم يكن شجارهما اليوم أول شجار بينهما، منذ زواجهما الذي دام أكثر من عشرة أعوام، بعد قصة حب ظنا أن الأجيال ستتعلم منها العشق والرومانسية، فأصبحت أتفه الأمور سببا كافيا لافتعال المشكلات والشجار بينهما، فهو ما أن يدخل إلى بيته عائدا من العمل مكشرا كالعادة، تركبه العفاريت، فقليلا ما يبتسم في بيته، على عكس حاله في العمل، فهو أكثر مرحا ودائم الهزار والظرف واللطف خصوصا مع زميلاته، أما حينما يدخل من باب بيته يتفنن في اختلاق المشكلات، بحجة أنه عائد من عمله متعبا ولا يطيق ملابسه، فتهاجمه زوجته بأنها هي الأخرى تشقى وتتعب من الصباح في توصيل الأولاد إلى المدرسة، ثم الذهاب إلى السوق، ثم العودة للطبخ وتنظيف البيت حتى المساء، عندما تذاكر للأولاد دروسهم حتى يناموا، لتحضر بعدها العشاء له، وبعد كل هذا لا تقابل ولو حتى بابتسامة من وراء القلب، أو كلمة حلوة تحلي من مذاق ريقها المر. أما عن سبب الشجار بينهما اليوم، فلأنها قد غسلت كل ملابسه ولم تترك له غير الطاقم الذي كان يرتديه بالأمس، فقالت له:

- كلهم كانوا متسخين، وبعدين مش لازم تلبس كل يوم طقم مختلف، هو أنت رايح تشتغل ولا رايح تتجوز؟

- باقولك إيه اصطبحي وقولي يا صبح. أنا فاهم قصدك كويس. عايزة تطلعيني أنا اللي غلطان وخلاص.

- أيوه غلطان وستين غلطان. علشان كل يوم والتاني تلبس لي طاقم مختلف وبعدين ترميه للجارية بتاعتك تغسله لك، ولا كأني ورايا مسؤوليات تانية.

- مسؤوليات إيه يا أم مسؤوليات؟ ده أنتي طول النهار قاعدة في البيت مرتاحة، الدور والباقي على اللي بيطلع يشتغل النهار كله.

وظل الشد والجذب هكذا مستمرا بينهما، حتى جاءهما فجأة صوت ارتطام وتكسير في الصالة، فخرجا مسرعين ليريا ماذا حدث، ففوجئا بصورة زفافهما المعلقة على الحائط في بروازها الكبير قد سقطت على الأرض وتناثر الزجاج من حولها، بعدما كان منظرها وهي معلقة يشع حبا وحنانا أبديا، فجثيا على ركبتيهما وأمسكا بصورة الزفاف، وأخذا يلملمان الزجاج المتناثر على الأرض ويبحثان عن سبب سقوط الصورة. وبعد البحث والتشاور، توصلا إلى أن الخيط الذي كانت تتعلق به الصورة قد تهالك بفعل عوامل الزمن ومرور الأيام، وأنهما قد أخطآ لأنهما لم يجدداه ويبدلاه بخيط آخر جديد يتحمل الأيام ويقاوم التآكل الذي قد يصيبه بسبب الإهمال. نهض الزوج من مجلسه وأخذ يبحث عن خيط جديد، ثم عاد وفي يده قطعة من الخيط المقوى، وطلب منها أن تساعده في ربط الصورة، ثم أعاداها مرة أخرى إلى الحائط بالخيط الجديد، ثم نظرا إلى بعضهما البعض وهما يتأملان الصورة، وسرعان ما زال غضبهما، فضمها إلى صدره بحنو وقال:

- صباح الخير يا حبيبتي.

فتنهدت وقالت وهي تحتضنه:

- صباح النور يا حبيبي.

امرأة أبي

لا توقد ناراً لا تستطيع إخمادها

توفيت إلى رحمة الله الحاجة ثريا، زوجة وشريكة حياة الحاج عبد الحكيم الشهير بالحاج حكيم، وتركت له فراغا كبيرا شعر به منذ اللحظة الأولى لوفاتها، كما تركت له ابنهما الوحيد صبري، الذي لم يكمل بعد عامة الثالث بعد العشرين.

انتهت سريعا مراسم الغسل والتكفين وتشييع الجنازة المهيبة بمقابر العامود، فلقد كانت امرأة طيبة يشهد لها الجميع بالإيمان والتدين. وعندما حل المساء، نُصب سرادق العزاء، ووقف الأب وابنه في المقدمة يتلقيان التعازي من الأقارب والجيران. وعندما انتصف ليل الإسكندرية، كان كل شيء قد انتهى، وأصبح الأب وابنه وحدهما في الشقة لأول مرة في حياتهما.

كانا يجلسان في الصالة والشقة كلها مظلمة عدا البقعة التي يجلسان فيها، وكان الصمت يخيم على جميع الأركان، حتى أنهما كانا يسمعان أصوات أنفاسهما من درجة السكون الذي كان يغلف المكان، والتقت أعينهما ولم يستطيعا إلا أن يقوما ويرتميا في أحضان بعضهما البعض ويبكيان بحرقة وألم.

مرت الأيام ثقيلة كسنوات، وبدأ الشعور بالوحدة يتأصل بداخل كل منهما، وبرغم أن الأب يعمل على إشعار ابنه بأنه أب وأم في نفس الوقت، وبرغم أن الابن يعمل على خدمة أبيه ويتفانى في إزاحة أعباء الوحدة

عنه، إلا أنهما فشلا في إشعار بعضهما البعض بهذا الشعور، وبات البيت يحتاج لنَفَسِ امرأة وأيدي امرأة وطعم امرأة، فاقترح الابن على أبيه أن يتزوج، فرفض رفضا شديدا وقال:

- لن أسمح لنفسي أن أُدخل امرأة أخرى بيتي بعد أمك إلا زوجتك.

فرح الابن لسماع ذلك من أبيه، كما فرح أيضا بأن سيرة زواجه فُتحت لأول مرة بينه وبين أبيه، فتساءل في خبث:

- ولكني ما زلت صغيرا على الزواج، والمشوار أمامي طويل.

فضحك الأب قائلا:

- لا صغير ولا حاجة، السنين تمر سريعا، فلقد تزوجتُ أمك وأنا عمري ثمانية عشر عاما، اتجدعن أنت في دراستك ولا تحمل هم شيء.

وفي اليوم التالي، وأثناء جلوس الحاج حكيم في دكان عطارته بالعطارين، مر عليه صديقه الحاج نافع. وبعد السلامات والطيبات، شكى له الحاج حكيم من افتقار البيت للمرأة، فلا طعام جيد يؤكل، ولا نظافة جيدة تنظف، ولا غسيل جيد يغسل، ولا طعم للحياة يتذوق. هنا لمعت في رأس الحاج نافع فكرة، سرعان ما عرضها على الحاج حكيم.

وفي صباح اليوم التالي، كانت الشقة قد رُتِّبت، والملابس قد غُسِلت وكُوِيت، وأشهى الطعام قد طُبِخ،

وانتشرت رائحته الذكية في أركان الشقة التي قتلها الجوع، وكل ذلك تم بيدي فتاة الثانوي فتنة ابنة الحاج نافع، التي أرسلها أبوها لخدمة الحاج حكيم وابنه طوال فترة الصيف وإلى أن تبدأ المدارس، حتى يجدا البديل ويدبرا شؤونهما.

ومرت الأيام ودبت الحياة مرة أخرى في الشقة، وأيضا في نفس الأب وابنه، وأصبحا مقبلين على الحياة، ونجحت فتنة في أن تجدد دماء البيت والحياة في عروقهما، فزاد نشاط الأب في تجارته، وزاد نشاط الابن في عمله الصيفي مع أبيه، وبدأت الحياة تأخذ طعما آخر.

ولكن انتهت إجازة الصيف سريعا وعادت فتنة إلى مدرستها. ورغم أنها كانت تأتيهما كل يومين بعد المدرسة لتصنع لهما طعام اليومين المقبلين وتنظف الشقة، إلا أنها تركت فراغا كبيرا في حياتهما وفي نفسيهما، وبدأ شعورا من نوع آخر يغزو القلبين، وبدأ الابن يسهر الليالي يفكر فيها تفكيرا طويلا، ويشعر برغبة ملحة في رؤيتها، وعندما يراها يشعر بأن كل ذرة في كيانه تهتز، ويتلعثم وينسى كل ما كان يريد أن يقوله لها، فأدرك أنه سقط في الحب. ومن جانبها، كانت هي الأخرى تشعر ناحيته بنفس الأحاسيس والمشاعر، ففكر في أن يفاتح أباه في أمر خطبتها، وشجعه على ذلك حديثه السابق معه، والذي كان يبارك له فيه فكرة الزواج المبكر، واختار ليلة عاد فيها الأب مبكرا من

دكانه، فاقترب منه وقال:

- أبي، أريد أن أفاتحك في أمر مهم.

فابتسم الأب، وقال:

- أنا أيضا كنت أريد مفاتحتك في أمر مهم، ولكني كنت أتحين الفرصة المناسبة.

فشعر الابن بأنها بشرة خير، وأن الحوار بينهما سيكون مفتوحا، فقال:

- تفضل يا أبي كلي آذان صاغية.

- تكلم أنت أولا، فأنت الذي طلبت الحديث قبلي.

فتحرج الابن وقال بإصرار:

- لا يصح يا أبي، فالأدب يقضي بأن تتحدث أنت وأنا من بعدك.

فربت الأب على كتفه بحنو وقال:

- نِعم التربية الصالحة يا صبري. انظر يا بني، لقد افتقدنا أمك كثيرا، وحاصرتنا الوحدة من كل ما حولنا، إلى أن جاءت فتنة وأعادت إلينا شيئا من الأنس والبهجة، ولكنها أيضا رحلت، وهذا أمر طبيعي وكان سيحدث حتما.

هنا حاول الابن أن يستغل هذه الفرصة ليقول له إنها ستعود مرة أخرى، ولكنه تحرج من مقاطعة أبيه، الذي أكمل قائلا:

- لذلك يا بني، أنا اتخذت قرارا أريدك أن تشاركني الرأي فيه.

- وما هو يا أبي؟

- لقد رأيت أن الزواج لي مستحب، خصوصا وأنا في مثل هذه السن التي أحتاج فيها لامرأة تشملني بعطفها وحنانها، وتعمل على خدمتي ورعايتي، على الرغم من صعوبة ذلك على نفسي أن أدخل امرأة أخرى بيتي بعد الحاجة ثريا رحمها الله.

احتار الابن، هل يفرح لهذا الخبر ويتخذه سندا لمطلبه، أم يحزن لأن أباه تحجج له بنفس الحجة التي كان يريد أن يتحجج له بها في طلبه، وهي أن يتزوج من فتاة تعمل على خدمته ورعايته، ولكنه قرر أن يسعد ويفرح، وهمَّ بأن يطلب منه طلبه هو الآخر، ولكن أباه بادره قائلا:

- أري علامات السرور مرتسمة على وجهك، هل معنى هذا أنك موافق؟

- بالطبع يا أبي، فأنا لا أريد لك سوى الراحة والاستقرار كما تريد أنت لي ذلك بالطبع.

- بالطبع يا بني، وأسأل الله أن يبارك لي فيك ويرزقك بالزوجة الصالحة.

- وهذا هو الأمر الذي كنت أريد أن أفاتحك فيه، أناا...

فقاطعة الأب متذكرا:

- وألا تريد أولا أن تسألني من هي العروس التي وقع عليها اختياري؟

فابتسم الابن وقال:

- لقد فاتني بالفعل أن أسألك. من هي العروس؟

- فتنة ابنة الحاج نافع.

كانت تلك الجملة أشبه بحجر كبير سقط على رأسه، واحتاج إلى وقت طويل حتى يستوعب حقيقة ما سمع. وعندما سأله أبوه عن سر صمته، شعر بأنه يعود تدريجيا من عالم بعيد كان قد ذهب إليه من صدمته، فحاول أن يستجمع شتات عقله وينطق بأي شيء، ولكن عقله لم يساعده على ذلك، فأردف أبوه قائلا:

- إنني أراها مناسبة وليست غريبة عنا. نعرف أصلها وفصلها، ودخلت بيتنا وعاشرتنا، فما رأيك في اختيار أبيك، أليس في محله؟

كان عليه أن يجاهد كي يرد على أبيه، حتى استطاع أن يقول:

- نعم، إنه في محله فعلا، ولكن ألا ترى أنها صغيرة عليك جدا؟

- لا تظن في أبيك أنه قد عجَّز وشاب، الدهن في العتاقي كما يقولون، والفتاة رغم أنها تحت العشرين إلا أنها بسم الله ما شاء الله، طول بعرض ومتفجرة الأنوثة، وغدا أريدك أن تأتي معي لنذهب إلى أبيها لنطلب يدها على بركة الله.

تعجب الابن من ذلك أشد العجب، فالفتاة التي كان يحبها ويحلم بها، والتي كان يريد أن يفاتح أباه في أمرها، يشاء القدر وفي غضون ساعات أن يذهب ليطلبها لأبيه. وظل في شروده وتعجبه هذا حتى تذكر الأب فجأة وقال:

- الآن عرضت عليك طلبي، فماذا كان طلبك أنت؟

ورغم الحزن الشديد الذي كان لا يزال يسكن أركان الابن، إلا أنه وجد نفسه يضحك ضحكا عاليا، وثمة دمعات ظهرت في عينيه، وقال:

- إنه نفس طلبك يا أبي، الزواج من فتنة.

فابتسم الأب ابتسامة بريئة وقال:

- ألهذه الدرجة كنت تفكر في مصلحة أبيك وراحته، وتتمنى زواجه من نفس الفتاة؟ إنه حقا قدر غريب.

فهز الابن رأسه ساخرا وقال:

- حقا قدر غريب.

وبينما كان الابن يتمنى ألا يأتي الغد، كان الأب ينتظره بفارغ الصبر.

وجاء الغد، ليجد صبري نفسه جالسا في بيتها بين أبيه وأبيها، ليحضر لحظة طلب يدها ليس لنفسه كما حلم وتمنى، ولكن لأبيه. كان يتمنى أن يصير كل ذلك حلما، وأن يجد نفسه فجأة يستيقظ منه، ولكن كانت كل دقيقة تمر تؤكد له أنه مستيقظ، ويرى بنفسه هذا الكابوس ويعيشه. كان والده الحاج حكيم يجلس في صمت وقور، والخجل يقطر من وجهه المتورد بحمرته، بينما لا تزال عينا الحاج نافع تلمعان بالذكاء، فلقد كان على تمام العلم منذ أن أرسل ابنته إليهما أنها ستكون الطُعم الذي سيصطاد به تلك الأسرة الغنية. وزادت لمعة عينيه عندما تنحنح الحاج حكيم وصارحه برغبته في مصاهرته، فقال مرحِّبا:

- هذا شرف لي، صبري ابني وأنت أخي.

ولكنه لم يكن يتوقع أنه جاء ليطلبها لنفسه وليس لابنه، وكانت المفاجأة شديدة، ولكنه سرعان ما استطاع بدهائه أن يتغلب عليها، وطلب منه المهلة ليستشير العروس. وبعد أن انصرفا، كانت المفاجأة لا تزال مرتسمة على وجهه ووجه زوجته وابنته، لكنه بعد تفكير طويل قال لابنته:

- ليس مهما من العريس، المهم أن يكن لك نصيب من ميراثهما الكبير، حتى تضمني لنفسك مستقبلا مطمئنا.

ورغم عدم قبول فتنة في بادئ الأمر الزواج من رجل في عمر أبيها، إلا أنها لم تجد أمام رغبته إلا التسليم. وبالفعل تم الزواج، وانتقلت فتنة إلى شقة الأب وابنه.

وفي الوقت الذي كانت تتحول فيه العروس من فتاة إلى امرأة ليلة عرسها، كان صبري مستلقٍ على سريره، وإحساس يراوده بأن سقف الحجرة وجدرانها يطبقان على صدره، كلما تخيلها وهي في حضن أبيه وتحت تصرفه. ولم يستطع البقاء في الحجرة، بل في الشقة كلها، فانتفض وخرج إلى الشارع لا يدري إلى أين يذهب، حتى استقبله مقهى ساهر على البحر، فقضى به ما تبقى من الليل. وعندما تملكه الإرهاق، كان الليل قد ولى وبدأ نهار جديد يولد في سماء الإسكندرية، فعاد معه إلى البيت واستسلم لنوم عميق.

وفي نفس التوقيت، كان الحاج حكيم قد استيقظ ولديه شعور بأنه عاد إلى الوراء عشرين عاما، يحتل نفسه وقلبه، فأخذ يفرد ذراعيه في نشاط، ونظر إلى

عروسه التي استيقظت هي الأخرى، وقال باسما:

- صباحية مباركة يا عروسة.

وبصوت يمزج بين التعب والفرح جاء ردها:

- صباحية مباركة يا عريس.

أنعشته كلمة عريس، وشعر بأنها زادته نشاطا وحيوية، فقام وأحضر لها الإفطار، وجاء به على صينية وقدمه بين يديها على السرير، فانتفضت وقالت:

- اسم الله على مقامك يا حاج، هذه إهانة لي لا أقبلها.

فضحك من كل قلبه وقال:

- من اليوم أصبحتِ أنتِ ملكة هذا البيت، وجميع من فيه عبيدك.

وغمس لقمة عسل نحل ووضعها في فمها، فأخذت تتأمل ملامحه وهي تمضغ الطعام. فبرغم شيبته وشعره الأبيض، إلا أنها تزيده وسامة وإجلالا. وفجأة لاحت في خيالها صورة صبري، فكم يشبهه، ولكن هيهات للشاب أن يكون كالشايب، إنه أجمل وأصبى، وكان فتى أحلامها قبل أن يخطفها ذلك العجوز، لا لبعيد عنه، ولكن ويا للعذاب في نفس بيته.

ومرت الأيام وصبري يتجنب لقاءها، سواء في أوقات الطعام أو غيرها، إلى أن فوجئ بها ذات صباح تقف بجوار سريره وتوقظه من نومه، ففتح عينيه ليرى أول ما يرى عينين يملأهما الشوق والنداء، فانتفض مفزوعا وقال:

- هل حدث شيء؟

- لا لم يحدث أي شيء، لقد وجدتك نائما فخشيت أن يفوتك ميعاد محاضراتك.

- وكم الساعة الآن؟

- العاشرة صباحا.

- وهل استيقظ أبي؟

- الحاج في دكانه منذ الصباح الباكر.

شعر باضطراب شديد، وأخذ يفكر سريعا: هو ليس لديه محاضرات اليوم، ولم يكن في نيته النزول، ولكن الظرف الآن يدعوه وبقوة للفرار من البيت، خصوصا بعدما علم أن أباه قد نزل، وأن جدران هذا البيت لا تحوي الآن سواهما، فقام ولبس وخرج هاربا من نظرات عينيها التي لا تقل شوقا عن نظرات عينيه.

وإذا كان هذا الصباح قد مر على خير، فصباح اليوم التالي كان أصعب وأشد تعقيدا، عندما استيقظ مبكرا للذهاب إلى كليته، وما أن فتح باب الحمام حتى فوجئ بها تقف أمامه شبه عارية بعدما انتهت لتوها من الاستحمام، فتسمرت أقدامهما، وشعرا بأن الدماء تتفجر في رأسيهما، وبصعوبة بالغة انتزع نظراته من لحمها البض، وانتزع نفسه من وقفته، وفر هاربا من البيت منطلقا في فضاء المدينة.

كان كل يوم يمر يزداد فيه إحساسه بالعذاب والقلق، فها هي أول فتاة يحبها ويدق قلبه لها، يُحرم منها. وليتها بعدت عنه واختفت من حياته، وكأن القدر أراد له العذاب والحيرة، فجاء بها إلى نفس بيته، ولا يفصل

بين غرفتيهما سوى جدار، فيراها أمامه في الصباح وفي المساء، وأثناء كل وجبة طعام، وأصبح يلمح خيالها في كل ركن بالبيت، يرى ملابسها في كل مكان، يشتم رائحتها، يتتبع ظلها، يعانق ملابسها الداخلية المعلقة بالحمام ويضمها بين ذراعيه، يتذكر كل صورة لها قد رآها عليها، يتذكر وهي واقفة أمامه شبه عارية، تختلط عليه كل تلك الصور، فيشعر بأن رأسه ستنفجر، وأخذ يتساءل في نفسه: إلى متى سيظل في هذا العذاب؟ وماذا عليه أن يفعل؟ وإلى أين يهرب وهو ليس له في الدنيا إلا أبيه؟ وآه من أبيه، لقد نسي الدنيا منذ أن تزوجها، نسي حتى نفسه.

عشرات من الأسئلة تداخلت مع عشرات الصور وتزاحمت في عقله، حتى وجد نفسه فجأة لا يستطيع الوقوف، فاختل توازنه وسقط على الأرض مغشيا عليه. وفي الغرفة الملاصقة لغرفته، سمعت فتنة صوت الارتطام، فهرعت إلى غرفته ورأته وهو ممدد على الأرض، فشهقت من منظره وحاولت رفعه إلى السرير، ثم جرت سريعا لإحضار زجاجة عطر، وأفرغت منها على كفها، ثم قربته من أنفه محاولة إفاقته، حتى نجحت في إعادته إلى وعيه مرة أخرى. وفتح عينيه فالتقت أول ما التقت بعينيها بشوقهما وندائهما. وبعد مرور فترة قصيرة من الوقت، دخل عليهما الأب بعدما بحث عنهما في كل أنحاء الشقة، فتثبتت قدماه وبرقت عيناه، وشهق شهقة أسلم الروح معها من المنظر الذي

رآه!

وجوه وأقنعة

إذا رأيت الشر في وجوه الأبرياء فقد سقطت الأقنعة

المكان: مطار نيويورك.

الزمان: الساعات الأخيرة من الليل قبل بزوغ فجر يوم جديد.

الحدث: استعداد الطائرة العائدة إلى القاهرة للإقلاع، والتي تحمل على متنها عددا كبيرا من الشخصيات المصرية الهامة.

***

الآن وصل الأتوبيس الذي يحمل الركاب بالقرب من سلم الطائرة، ويصعد عليه الأديب المصري الشهير والمثقف الكبير مخلص أمين، الحاصل على جائزة البوكر العربية عن آخر رواياته، التي تحمل عنوان "لكل منا وجه آخر"، والتي كان يحضر حفل توقيع نسختها الإنجليزية هنا في أمريكا. قابله المضيفون عند باب الطائرة بالتهاني والترحاب، ومنهم من أخرج له أوتوجراف ليحصل من الكاتب الكبير على كلمة للذكرى.

ومن خلفه يصعد الآن سلم الطائرة الشيخ فاضل وحيد، العالم الأزهري المصري الجليل، وهو رجل مستنير ومعروف بمحاربته للتشدد والتعصب، وله كتب توضح صحيح الدين ووسطيته التي غرسها فيه الأزهر الشريف، وكان هنا لإلقاء محاضرة ينظمها المركز

الإسلامي عن الإسلام والإرهاب، بعنوان "أدلة براءة الإسلام من الإرهاب كما جاء في السنة والكتاب"، ولكنه لم يجد الترحيب المناسب من المضيفين عند الباب نظرا لعدم معرفة أحد به.

أما الآن فيصعد السلم رجل الأعمال المصري الكبير، صاحب أكبر وأضخم المشاريع الاستثمارية في مصر، وجيه الشاطر، الذي يتأبط ذراع زوجته وفاء شديد، ابنة وزير الإسكان السابق كساب شديد، ومن خلفهما مدير أعماله وصديق عمره صادق نبيل، وتبدو عليهما أصدق تعبيرات الحب والسعادة، خصوصا بعد أن استطاعا أن يحصلا على إجازة من العمل لمدة أربع وعشرين ساعة، للاحتفال بعيد زواجهما واستعادة ذكريات شهر العسل الذي قضياه هنا أيضا في أمريكا، فقد أصرت على أن تأتي معه إلى أمريكا للاحتفال بهذه المناسبة، رغم علمها بأنه قادم من أجل عقد عدة صفقات مع عملاء أمريكان، ولكنها استطاعت أن تقنعه بأن يأتي بها معه للاحتفال بهذه المناسبة ولو لمدة يوم واحد فقط، ولم يستطع أن يقابل رغبتها العارمة هذه بالرفض، خاصة بعدما أقنعه صديق عمره ومدير أعماله صادق نبيل بأنها لن تعطلهما عن مهمتهما، وأنه من الممكن اختلاس يوم للاحتفال بعيد زواجهما، على أن يتولى هو في باقي الأيام وضع برنامجا يشغلها ويمتعها بعيدا عن عملهما، واقتنع أخيرا، وها هم الآن بعد هذه الرحلة السعيدة يصعدون سلم الطائرة وهم في غاية

الحب والبهجة.

***

أما الآن، فتصعد الفنانة المصرية الكبيرة والممثلة العظيمة شريفة شرف، ومعها زوجها الصحفي والإعلامي الكبير جلال ماضي، الذي كان يحضر معها في أمريكا تصوير المشاهد الأخيرة من فيلمها الجديد "ذات الوجهين"، الذي تؤدى فيه دور امرأة مصرية تعاني من انفصام في الشخصية، فتارة تكون مصرية خالصة متمسكة بدينها وعاداتها وتقاليدها وهويتها، وتارة أخرى تكون أمريكية متحررة من كل ما يمت لأصلها بصلة، لأنه يذكرها بالجهل والتخلف وهي تريد التقدم والعصرية، وبالطبع قوبلت عند باب الطائرة بمنتهى الحب والسحر والإعجاب.

والآن يصعد على السلم شيخ سلفي ملتحٍ يدعى الشيخ ابن عبد الوهاب، يرتدي جلبابا أبيض قصيرا، ويتأبط ذراع زوجته راضية رضا، وهي منتقبة وترتدي جلبابا أسود لا يُظهر منها شيئا حتى عينيها. وعند باب الطائرة، وزع الشيخ ابن عبد الوهاب على المضيفين بعضا من نسخ شريطه الأخير "وجه المرأة بين السفور والنقاب"، ومع كل شريط سواك هدية.

وبعد مرور وقت قصير، كان باقي الركاب قد صعدوا إلى الطائرة، وبدأت الطائرة الصعود إلى السماء في

طريقها إلى مصر.

***

استوت الطائرة واعتدلت في السماء، واستوى واستراح كل من بداخلها، وبدأت المضيفة تمر بعربتها الصغيرة وتوزع الابتسامات والوجبات على الركاب، وبدأت بالأديب الكبير الذي ابتسمت في وجهه وقالت:

- شرف كبير لي أن أقابل كاتبا بقامة حضرتك.

- ميرسي.

- أنا بحب حضرتك جدا وأقرأ كل أعمالك.

ملأ الزهو والإعجاب صدر الكاتب؛ فانشرح وسألها مبتسما:

- ويا ترى ما أكثر رواية لي أعجبتك أو تأثرت بها؟

ظهر الاضطراب على ملامح المضيفة للحظات، وحاولت التخلص من تلك الورطة التي وضعت نفسها فيها، فهي لم تقرأ له شيئا على الإطلاق، ولا كانت تعرفه أصلا لولا أن أحد أفراد الطاقم حدثها عنه، فقالت مؤكدة:

- كل أعمال حضرتك ألتهمها التهاما، خصوصا روايتك الأخيرة، للأسف تائه عن ذهني عنوانها.

- تقصدين رواية "لكل منا وجه آخر"، التي حصلت على البوكر العربية؟

- بالضبط. لقد وصلت لكامل نضجك الأدبي فيها.

وبعد أن حصلت منه على كارت يحتوي على جميع أرقامه، حيَّته وتركته والإحساس بالزهو والفخر يملأ كل ذرة في كيانه.

وفي المقعد الخلفي للأديب الكبير، استقر رجل الأعمال وجيه الشاطر وزوجته الحسناء وفاء شديد، وكانا يتبادلان قبلة، وفي المقعد المجاور لهما على الجانب الآخر يجلس صديقه ومدير أعماله صادق نبيل، يتصفح الجريدة ويختلس النظر إليهما، وعندما اقتربت منهما المضيفة ورأت مشهد القبلة، سرت قشعريرة باردة في جسدها، والتقت عيناها بعيني صادق نبيل، الذي قال لها هامسا:

- إنهما يحتفلان هذه الأيام بعيد زواجهما، فالعمل يلتهم جميع أوقاتهما، وقلما يجدان أوقاتا يعبران فيها عن حبهما واشتياقهما لبعضهما، فقصة حبهما أسطورية تضاهي كل القصص الرومانسية الشهيرة.

فقالت المضيفة بنظرة ولهجة موحية ودالة:

- بالفعل واضح عليهما أن الاشتياق بلغ أقصاه.

ثم تنحنحت فانتبه العاشقان، وعندما رأياها اعتدلا في جلستهما، فابتسمت لهما، فحياها وجيه وهو يمسح آثار الـ"روج" عن شفتيه بمنديله، فقالت معتذرة:

- عفوا لقطع لحظاتكم الجميلة، أعلم أن تلك اللحظات الرومانسية أصبحت قليلة ونادرة.

تورد وجه وفاء بالخجل، بينما ابتسم وجيه وهو يتناول الطعام قائلا:

- بالفعل. لعن الله العمل، إنه يلتهم العمر التهاما.

- معك حق، والدليل أنني بلغت الثلاثين، ولم أتزوج حتى الآن، والسبب هو أوقات العمل والسفر حول العالم.

شعر وجيه أنها تعمدت أن تعرفه سنها، وأنها غير متزوجة، كما تنبه لنظراتها الجريئة وهي تتحدث معه، فتفتحت شهيته الدائمة للنساء، وقال لها بلهجة حاول أن تجمع بين الجد والغزل:

- ليس من العدل أن يظل كل هذا الجمال إلى الآن دون تقدير من أحد. اسمحي لي أن أشك في ذوق كل من رآك ولم يُفتن بك.

حاولت المضيفة التي أطربها هذا الغزل أن تختلس النظر إلى زوجته وفاء لترى وقع كلمات زوجها عليها، فتعجبت عندما رأتها تبتسم ولا يبدو عليها أي إحساس بالضيق، ثم انصرفت بعدما حصلت من وجيه على كارت به تليفوناته، كما حصلت منه على غمزة من إحدى عينيه، ردت عليها بابتسامة موحية، منها ثم انصرفت عنهم وعاد العاشقان إلى التهام الشفاه مرة أخرى، بينما عاد صادق نبيل إلى تصفح الجريدة وتأمل رقم التليفون الذي كتبته له المضيفة على إحدى صفحاتها.

***

الآن هي أمام مقعد الفنانة الكبيرة شريفة شرف،

وزوجها الصحفي والإعلامي الكبير جلال ماضي. كانت الفنانة الكبيرة تقرأ ملخص الفيلم الجديد الذي ستدخله فور عودتها إلى القاهرة، والصحفي الكبير يراجع عدة مقالات له سيرسلها لعدة جرائد يكتب بها. ألقت عليهما التحية وكلمات الإعجاب المحفوظة والمكررة، ووصفت للفنانة الكبيرة كم أنها تحبها، وكم كانت تتمنى أن تصبح ممثلة، لكن حظها السيء أخذها بعيدا عن حلمها القديم، وهو حلم يتجدد كلما رأتها على الشاشة، لأن قصة كفاحها في بداياتها تذكرها بقصة حياتها وكفاحها هي هذه الأيام، فتعاطفت معها الفنانة الكبيرة أو هكذا تظاهرت، وقالت:

- سأعطيكِ رقم هاتفي لتحدثيني، وإن كنت موهوبة حقا سأجعلك تقابلين المنتج بتاعي.

تهلل وجهها، ثم التفتت إلى الصحفي والإعلامي الكبير الذي كان منهمكا في مراجعة مقالاته، كما كان منهمكا أيضا في تأمل ساقي المضيفة وركبتيها، فابتسمت له وقالت:

- وأحب حضرتك أيضا يا أستاذ جلال، وأتابع كل عواميدك الصحفية في جميع الجرائد، وخصوصا عامودك الذي حصلت عنه عن جائزة التميز في الصحافة.

- تقصدين عامود "وجوه"؟

- بالضبط، إنه يعد من علامات الصحافة العربية الآن. على فكرة يا أستاذ، أنا كنت أتمنى أن أصبح كاتبة،

وكانت لي محاولات في كتابة الشعر أثناء دراستي، ولكن للأسف ظروف الحياة جعلتني أنصرف عنه.

اعتدل الصحفي والإعلامي الكبير في جلسته، وكأنه وجد خيطا للحديث معها، لا يعلم هل جاء صدفة أم هي التي غزلته ببراعة وسلمته طرفه ليشده نحوه، فقال:

- خسارة كبيرة بالتأكيد، فموهبة كتابة الشعر نادرة وعظيمة ولا تأتي للكثيرين، أتمنى أن تراسليني وتأتي ببكل ما كتبتيه لأقيِّم موهبتك، ومن يدري، أليس من الممكن أن نكسب شاعرة جديدة؟

ابتسمت له وشكرته على هذا العطف والكرم، وبعد أن انتهت من تقديم الوجبة لهما كانت قد حصلت على كارت منه وآخر من زوجته، وانصرفت وانصرف معها نظر الإعلامي الكبير الذي كان ما زال يتأمل سيقانها الفاتنة.

***

توقفت المضيفة أمام مقعد الشيخ ابن عبد الوهاب وزوجته المنتقبة. كان يحك أسنانه بالسواك وهو يقرأ كتاب "عقيدة أهل السنة والجماعة" لـ"ابن عثيمين"، وما أن رآها حتى أدار وجهه مستغفرا الله من منظر ساقيها العاريتين، وقال:

- ماذا تريدين يا أخت؟

- لا شيء سوى وضع الطعام.

- ضعيه وانصرفي سريعا. لا أريدك أن تركبينا ذنوبا بسبب تبرجك وعريك السافر، ولكن حذار أن يكون في هذا الطعام لحم خنزير والعياذ بالله.

فاشمأزت، وقالت بتأفف:

- لا تقلق يا أخ، فنحن مسلمون مثلك.

فنظر إليها من فوقها لأسفلها مشمئزا وقال:

- لا يظهر عليكِ أي مظهر من مظاهر الإسلام.

ثم مال على أذن زوجته راضية رضا السارحة دائما، وهمس في أذنها ببضع كلمات، فهزت رأسها ثم اقتربت من المضيفة وقالت:

- يا أخت نريد أن نوجه لك نصيحة غالية لوجه الله. إن تبرجك هذا كفر، لأنه يتنافى مع تعاليم الدين، الذي أمر بستر المرأة حتى لوجهها وكفيها، فما بالك بباقي جسدها؟ كما أن عملك هذا يعرضك للخلطة المحرمة، والعمل للرجل وليس للمرأة، وإلا فإنها بذلك تتشبه بالرجال، وبالتالي تصبح ملعونة.

أثار هذا الكلام غضب المضيفة، فابتسمت لهما ابتسامة باهتة محيية إياهم، وانصرفت وعلى وجهها علامات التقزز، حتى وصلت أخيرا إلى مقعد فضيلة الشيخ فاضل وحيد، العالم الأزهري الجليل، الذي كان مشغولا بقراءة القرآن بصوت هادئ وعذب، وما أن رآها حتى أغلق المصحف وقال في عذوبة ودعة:

- جُزيت خيرا يا بنيتي، أطعمك الله وسقاك في جنته ومستقر رحمته.

أطربتها هذه الدعوات الطيبات من ذلك الشيخ الكريم، وأزالت عنها غم الكلام السخيف الذي سمعته منذ قليل، وشعرت بحنوّ الأب الذي افتقدته منذ صغرها، ثم سألته والدموع تتجمع في عينيها:

- أريد أن أسأل فضيلتك: هل أنا كافرة لأنني متبرجة وغير منتقبة؟ وهل سأدخل النار لأنني أعمل، وبهذا أتشبه بالرجال فأصبح ملعونة من الله؟

هنا اعتدل فضيلة الشيخ، وظهر عليه الاهتمام والقلق، وقال:

- من يا بنيتي قال لكِ هذا الكلام؟

فقالت وبعض الدمعات تسيل على خديها:

- شيخ سلفي كلف زوجته المنتقبة أن تخبرني بهذا الكلام.

فقال الشيخ فاضل وحيد محاولا أن يهدئ من اضطرابها:

- الله يا بنيتي هو وحده الذي له الحق في أن يحكم على الإنسان إذا كان كافرا أم مؤمنا، لأنه هو خالقه وأعلم بما في نفسه، وليس من حق أي إنسان أن يصدر هذا الاتهام على إنسان آخر. أما التبرج من عدمه، فهذا أمر يخص الإنسان وحريته ومدى علاقته وصلته بالدين. أما عن العمل، فالإسلام لم يمانع أبدا من عمل المرأة، فاهدئي ومارسي حياتك بمنتهى الحرية، ولا تخشي أحدا إلا الله.

طابت نفسها لحديث الشيخ العذب، وشعرت بأن

أحمالا رُفعت من على صدرها، وأنها أصبحت خفيفة كفراشة، فاستأذنته وانصرفت إلى عملها، وانصرف هو إلى قراءة القرآن مرة أخرى.

مر الوقت سريعا، واقتربت الطائرة من حدود الوطن، وبدأ كل من غلبه النوم في التيقظ والاستعداد، وفرحة الوصول تعم جميع القلوب. لكن ثمة هزة عنيفة حدثت فجأة، ورجت على غثرها الطائرة ومن فيها، واحتل الإحساس بالقلق والخوف القلوب بدلا من الإحساس بفرحة الوصول. ووسط الذهول والدهشة اللذين أصابا الجميع، جاءهم صوت القائد من حجرة القيادة يقول:

- نهيب بحضرات السادة الركاب الالتزام بالهدوء والسكنية وربط الأحزمة جيدا، ولا داعي للذعر حتى نستطيع تجاوز الأزمة التي نمر بها الآن، وهي الاشتباه في تعطل محرك الطائرة الأيمن، وجارٍ الاتصال بجميع القيادات بالمطارات، فنحن يتبقى لنا نحو عشرون دقيقة للوصول لمطار القاهرة، ولا نستطيع العودة إلى أي مكان آخر، فلندعُ الله أن ييسر لنا الهبوط بسلام رغم صعوبة ذلك.

سرى القلق في أوصال وأعصاب جميع الركاب، وكانت الرغبة في الصراخ تراود الجميع، ولكنهم آثروا كتم صراخهم وذعرهم كما قال القائد، أملا في النجاة والوصول بسلام إلى أرض الوطن.

ثم حدثت هزة أخرى عنيفة ارتجت على إثرها الطائرة ارتجاجا جعل الدماء تتصلب في عروق جميع ركابها،

وهنا قام الشيخ الأزهري الجليل فاضل وحيد، وقال محاولا التحكم في أعصابه المضطربة:

- أيها الإخوة في الله، إنني أدعوكم إلى أمر هام، وأرجو ألا تكون هذه الدعوة مدعاة للسخرية أو التأفف، لأنه من الممكن ألا يسعفنا الوقت للنجاة. إنني أدعو نفسي وإياكم إلى توبة جماعية نصوحة إلى الله تعالى من كل ذنب اقترفناه، لعل الله ينجينا بتوبتنا إليه ويساعدنا على النجاة.

نظر جميع الركاب إلى بعضهم البعض نظرات اختلطت فيها الدهشة بالتعجب، ولم يرد عليه أحد، ثم حدثت هزة أخرى جعلت الخوف يصل في القلوب إلى أقصاه، وجاءهم صوت القائد يقول:

- نتمنى من جميع السادة الركاب أن يدعون الله بالسلامة والنجاة، فالأمر يزداد تعقيدا والأمل يقل تدريجيا.

هنا تعالى صوت الشيخ الجليل فاضل وحيد قائلا:

- يا عباد الله، توبوا إلى الله لعله ينجينا، فمن الممكن أن يكون أحد منا قد اقترف ذنبا يُغضب الله، وبسببه نهلك جميعا، ولعلنا إذا تبنا واعترفنا بذنوبنا وأعلننا التوبة بين يديه أن يسامحنا وينجينا.

فقال الأديب الكبير مخلص أمين والقلق والخوف يهزانه هزا:

- وافرض أننا اعترفنا بذنوبنا على الملأ ولم ننجُ أيضا، فبماذا سيفيدنا ذلك؟

- على الأقل نموت ونحن متطهرين من ذنوبنا، ولكن من الممكن أن يكون سبب النجاة لنا جميعا هو اعتراف أحد منا بذنب فعله، وأنا سأبدأ بنفسي: أنا أعترف أمامكم أنني أتوب إلى الله من ذنب اقترفته وأنا شاب في العشرينات من عمري، عندما جئت إلى القاهرة من بلدتي الصغيرة للالتحاق بالأزهر، وكنت راكبا في القطار، وكان يجلس بجواري رجل كبير، وعندما قام لينزل وجدت أنه قد نسي محفظته مكان جلوسه، فلعب الشيطان برأسي وزينها في نفسي مستغلا فقري، فأخذتها ولم أظهرها رغم أنه كان أمامي ومن الممكن أن ألحق به وأردها له، وعندما نزلت وفتحتها ولم أجد فيها أي نقود، ندمت ندما شديدا على هذه الفعلة، وتبت إلى الله، وكلفت أبي بأن يوصل هذه المحفظة إلى صاحبها عن طريق عنوانه المدون في بطاقته، وهذه أبشع فعله فعلتها في حياتي، والآن أتوب إلى الله منها، إذا كان لم يقبل توبتي السابقة، علها تكون سببا في نجاتنا. والآن الدور عليكم، فليعترف كل منكم بذنبه لعل الله ينجينا بسببه أو يهلكنا أيضا بسببه.

أخذ الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض دون كلام، والكل يقارن في نفسه بين الذنب الذي اقترفه هذا الشيخ في شبابه وبين المصائب التي ارتكبها كل منهم في حياته وما زال يرتكب، والكل ينتظر أن يبدأ أحدهم بالكلام. وعندما حدثت هزة أخرى عنيفة في الطائرة، أسرع الأديب الكبير مخلص أمين والخوف والذعر

يملآنه، قائلا بتردد:

- أنا عندي ذنب سأعترف به، ولكن أرجو أن تسامحوني عليه إذا كتب الله لنا النجاة. أنا لست أديبا أو كاتبا كما تعرفون. أنا في الأصل كنت أعمل سباكا مع صديق لي يدعى محجوب. هذا الصديق كان يعيش ظروفا صعبة بسبب فقره الشديد وأمه المريضة، التي تحتاج إلى نقل دم بصفة مستمرة، وكان هذا يكلفه الكثير، وكان يحلم صديقي هذا بأن يصبح أديبا وكاتبا كبيرا يوما ما، ولكن ظروفه الصعبة حالت بينه وبين ذلك، وفي يوم من الأيام اشتدت على رقبته حبال الفقر، واحتاجت أمه إلى نقل للدم، فأرسلني إلى القاهرة برواية له لأعرضها على دور النشر بأي ثمن، حتى يتمكن من نقل دم إلى أمه المريضة. وبالفعل تعاقدت مع دار النشر، ولكن المبلغ أغراني وكذلك الشهرة التي تمجد صاحبها، فكتبت اسمي على الرواية، وعدت إليه بالمال ففرح وحمد الله، ولكنه لم يعلم أنني قد كتبت اسمي بدلا من اسمه على الرواية. وصدرت الرواية ووصلته، وفوجئ باسمي عليها، فسألني غاضبا عن هذا، فتحججت له بأن الرجل طلب مني أن أحضره شخصيا حتى يوقع معه العقد، وأني علمت صعوبة ذلك لأنه لا يستطيع أن يترك أمه المريضة ويسافر، فلم أجد أمامي بدا من كتابة اسمي عليها، حتى يتسنى لي كتابة العقد والعودة إليه بالمال لتنقذ أمه، فسكت قليلا وهدأت أعصابه، ثم أقنعته بأن الاسم ليس مهما. الآن المهم

إنقاذ أمه المريضة، وبعد شفائها يظهر للنور، فاضطر إلى أن يوافقني لأن أمه وشفاءها كانا عنده أهم من أي شيء في الدنيا، حتى الكتابة التي كان يحبها ويتمناها. أعطاني العمل الثاني، وكانت مجموعة قصصية نزلت أيضا باسمي، بعدما اقتنع بأن اسمي نجح وأصبح عليه إقبال. وبدأت أشتهر في الوسط الأدبي والثقافي، وبدأ الناس يعاملونني على أنني كاتب موهوب ومبشر، وهو يكتب وأنا أوصل له المال يعالج أمه، واسمي يعلو ويعلو، حتى أصبحت كما ترونني الآن الأديب الكبير والمثقف الشهير، حتى جائزة البوكر العربية التي حصلت عليها مؤخرا كانت عن رواية له وهي "لكل منا وجه آخر"، كان يحكي فيها قصته ولكن بدون إشارة إلى ذلك. والآن بعد أن كشفت ذلك السر الخطير في حياتي، أتمنى من الله أن يسامحني، وأن تكون توبتي هذه سببا في نجاتنا.

كان إحساسا بالدهشة والذهول يسيطر على كل ركاب الطائرة: هل هذا معقول؟ الأديب الكبير ليس إلا نصابا، ظهر وطفا على عظام وأنقاض شخص آخر؟

هنا قام رجل الأعمال الكبير وجيه الشاطر، وشعور بالخجل يقطر من كل مكان من جسده، وقال:

- أنا أيضا أريد أن أعترف وأتوب إلى الله من كل ما فعلته في حياتي، خصوصا ذنب زواجي من زوجتي وفاء.

نظرت إليه وفاء بدهشة والصدمة تملأ وجهها، فالتفت

إليها قائلا:

- نعم، زواجي منك يعد ذنبا في حياتي، لأنني لم أحبك يوما من الأيام، وزواجي منك كان سعيا وراء ما وصلت إليه الآن، منذ أن كنت أعمل عندكم سائقا، وأراكِ النافذة التي سأطل منها على عالم الكبار الذي كنت أتمنى العيش فيه، فرسمت عليكِ الحب والعشق حتى استطعت أن أكسب قلبك. ولأنك ابنة معالي الوزير الوحيدة، كانت كل أحلامك أوامر، وقُبل زواجنا، وبهذا وضعت قدمي على أول طريق الأحلام والأماني، واكتملت هذه الأحلام عندما ساعدني أبوكِ معالي وزير الإسكان السابق على في الحصول على الأراضي التي أحتاجها لمشروعات العمر، حتى أصبحت كما تروني الآن رجل الأعمال الأهم في بلدنا. فليسامحني الله ولتسامحيني يا زوجتي العزيزة.

وفي ظل شعوره العميق بالخجل جراء اعترافه أمام زوجته، زال فجأة الشعور بالخجل وتبدل بالصدمة، عندما قامت زوجته قائلة:

- أنا أيضا أريد أن اعترف لك بسر يا زوجي العزيز. أنا أيضا لم أحبك يوما ما، بل أنت كنت النافذة التي سأطل كل يوم منها على حبيبي وعشيقي، الذي تزوجتك من أجل أن أضمن أن أكون بجواره، لأنه صديق عمرك الذي أصبح مدير أعمالك بناء على اقتراحي، إنه عشيقي وحبيبي صادق نبيل.

شعر وجيه بأن براكين من الدماء تتفجر في رأسه،

ونظر مندهشا إلى صادق نبيل، الذي لم يستطع تحمل نظراته فقال:

- اعذرني يا صديقي، فحبي لوفاء كان أقوى من صداقتنا. فليسامحني الله ولتسامحني أنت أيضا، لأنني رتبت لسفر وفاء معنا إلى أمريكا، وحاولت إقناعك بذلك حتى نكون أنا وهي بجوار بعضنا البعض، وننفرد ببعضنا أثناء انشغالك وانهماكك في صفقاتك التي لا تشبع منها أبدا.

ضرب الشيخ فاضل وحيد كفا بكف، وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. الأقنعة تسقط والوجوه الحقيقية تظهر. اعترفوا بذنوبكم عسى الله أن ينجينا.

هنا قامت الفنانة الكبيرة والممثلة الشهيرة شريفة شرف، وحاولت التغلب على ترددها وخوفها من زوجها، ولكن خوفها من الموت كان أشد، فقالت متلعثمة:

- أنا أيضا أريد أن أتخلص من حمل ثقيل على نفسي، وأتوب واعترف بذنوبي، لعلها تكون السبب في نجاتنا الآن. لقد كنت فتاة بريئة صافية مقبلة على الحياة بمنتهى الأمل والفرحة، ومنذ اكتشفت في نفسي موهبة التمثيل وحبي له، أصبح كل أملي أن أصير في يوم من الأيام نجمة للجماهير. وبدأت أبحث عن فرصة للظهور، وبدأتها بالمعهد، ولكن لأنني لم يكن معي واسطة لم أستطع الدخول، فحاولت في عدة أماكن، ولكن كانت كل الأبواب مسدودة، حتى تعرفت على المنتج أشرف شرف، الذي رق لحالي وساعدني، ووعدني بأنه سيقف

بجواري حتى يصل بي إلى القمة، ولكني عرفت من وقتها أن نقطة الانطلاق وأول خطوة في طريق القمة تبدأ من سرير هذا المنتج ومن غرفة نومه، وكان عليَّ كي أصل إلى القمة أن أبدا الطريق من نقطة الانطلاق، أي من سريره.

كانت صدمة زوجها جلال ماضي بما يسمعه من زوجته لا تقل على صدمة كل الركاب، فها هي الفنانة التي اشتهرت بالأعمال الخيرية وموائد الرحمن في شهر رمضان، وموقفها من القضية الفلسطينية، حتى أنها أصبحت سفيرة للنوايا الحسنة، الآن تعترف أن نقطة انطلاقها كانت من سرير منتجها الشهير أشرف شرف، الذي منحها اسمه في بدايتها ليظل معها طوال مشوارها. ولم تحتمل نظرات زوجها ولا نظرات باقي الركاب، فقالت:

- أعلم ما يدور في أذهانكم الآن عن كوني أقوم بالأعمال الخيرية، فلا أخفيكم سرا أنني أدين لهذا المنتج بالكثير والكثير، ليس فقط انطلاقي وشهرتي، ولكنه أيضا علمني كيف أكسب الناس من حولي. وبما أننا شعب طيب وحنون ومتدين بفطرته، فلماذا لا نُظهر له أننا نهتم بالفقراء والمساكين، ونقيم الأعمال الخيرية لخدمتهم؟ أعلم أن هذا ليس سلوك كل الفنانين، وأن الكثير منهم صادقين فيما يقولون ويفعلون، ولكني أتحدث عن نفسي وعن كثير ممن يشبهونني في الوسط، وهم ليسوا قلة، وأتمنى من الله أن يسامحني

وأن يقبل توبتي وأن ينجيني، حتى أعمل غير الذي كنت أعمل، ولو حدث ذلك سوف أذبح عجلا وأوزعه على الفقراء، وسأقوم بأداء عمرة وسأرتدي الحجاب.

فقام زوجها الإعلامي والصحفي الكبير جلال ماضي وقدماه لا تكادان تحملانه، وبعد فترة صمت جاهد ليقول:

- لم أكن أدري إلى هذه اللحظة أنني أعيش مع ممثلة قديرة، ليس فقط أمام الكاميرات، بل وفي جميع لحظات حياتها، ولكنني وللأسف لا أستطيع أن أوجه لها اللوم قبل أن أوجهه لنفسي، لأنني أيضا كنت طوال الوقت أمثل عليها، بل وأمثل على الناس جميعا ممن يعرفونني وممن يقرءون لي، فزواجي منها لم يكن إلا لتوسيع شهرتي وتوسيع دائرة معارفي عن طريقها. لقد كنت في صدر شبابي أحمل قلبا متوهجا بالحب والحماس والوطنية، وعقلا مشتعلا بالفكر والثقافة والتجديد، وجئت إلى القاهرة وفي ظني أن صاحبة الجلالة ستفتح لي ذراعيها لأترعرع بين أحضانها، ولكني فوجئت بأنها فقدت الكثير من جلالتها، وأصبح هذا الجلال ماضٍ وذكرى، ولم أجد أمامي طريقا مفتوحا سوى التمسح في بلاط السلطة، فأجَّرت قلمي لها، وأصبحت لا أكتب ما في وعيي وتفكيري ووجداني، بل ما كان يُملى عليَّ من أوامر ونواهٍ، فاليوم أهاجم هذا الوزير وغدا أمدح في ذاك، وما هجومي ومدحي إلا حسب الأوامر العليا، وبهذا وجدت الأبواب تُفتح لي

على مصراعيها، وأصبحت أكتب لكل الجرائد، القومية منها والمعارضة، طالما أنني أجَّرت قلمي لمن يدفع لي، فلا يهم لمن أكتب ولماذا، حتى لو اضطررت لأن أكتب اسما مستعارا تحت مقالاتي. وفي غضون سنوات أصبحت رئيسا لتحرير جريدة قومية عريقة، وبعدها أصبحت صاحب ثروة وأراضٍ وعقارات وشاليهات بمارينا والساحل الشمالي، وانطفأ في قلبي توهجه وفي عقلي اشتعاله، ولهذا لا أعتقد أن لومي لزوجتي الفنانة سيكون له معنى وداعٍ، فكلانا ممثل، وكلانا يستحق اللوم.

***

وبعد أن انتهى الأستاذ جلال ماضي من تطهير نفسه مما كان يحمله بجعبته، انصرفت الأنظار كلها نحو الشيخ السلفي ابن عبد الوهاب وزوجته السارحة دائما راضية رضا، فلم يتبق سواهما للاعتراف بذنب قد فعلاه، من الممكن أن يكون هو السبب في نجاتهم جميعا، فشعر الشيخ بأن نظراتهم إليه توخزه كالسكاكين، ولم يجد بدا من الحديث فقال:

- أنا لم أفعل أي ذنب في حياتي. ذنبي الوحيد أنني كنت أحلم بأن أصبح مطربا وملحنا مشهورا. نعم، الشيخ الملتحِ الذي أمامكم الآن نجم الفضائيات الدينية وصاحب الكم الكبير من الشرائط الدعوية، كان حلمه

الطرب والغناء، وعندما فشلت في الحصول على فرصة للظهور وشدَّت في وجهي كل الأبواب، جاءتني فرصة للسفر إلى السعودية للعمل. ورغم ثقل ذلك على نفسي، إلا أنني قررت السفر لأجمع مالا وأعود لأنتج به شريطا غنائيا لنفسي، أقدم به صوتي وألحاني للناس، ولكن التحول والهداية حدثا هناك عندما تعرفت على كتب وفكر الإمام محمد بن عبد الوهاب، ودرست الدين على أيدي تلاميذه، الذين أخذوا بيدي ونجُّوني من الضلال الذي كنت أسعى وأحلم به إلى طريق النور والهداية، وعدت إلى مصر ومعي المال، ولكن معي أيضا فكر جديد، جعلني ألغي مشروعي القديم الذي كان سيؤدي بي إلى جهنم وبئس المصير، وأفكر في مشروع جديد، وهو إنشاء شركة صوتيات لإنتاج شرائط دينية تحذر الناس من عذاب القبر وأهوال القيامة. وبالمال المتبقي معي شاركت بعض إخواني في إنشاء قناة فضائية دينية، تعمل على نشر الحكمة والرحمة بين الناس، وتنشر فكرنا لهداية المجتمع. نجح مشروعي، لكن رغم كل هذا التوفيق والنجاح إلا أنني أشعر دائما أن بداخلي شرخ لا أدري سببه أو كيفية علاجه. دائما أحن إلى العود والغناء عليه. وعندما كنت أقول ذلك لشيخي، كان يزجرني ويقول "إنها وساوس الشياطين، يستفزونك بأصواتهم ليخرجونك من النور إلى الظلمات"، فأعود مرة أخرى وأستعيذ بالله من همزات الشياطين، ولكن الشرخ ظل رفيقا لي حتى هذه اللحظة. لا أعلم ذنبا

محددا قد اقترفته، ولكني أدعو الله أن يغفر لي ما أعلم وما لا أعلم، إنه علام الغيوب.

هز الشيخ فاضل وحيد رأسه في آسى، وقال:

- ذنبك في فكرك الذي ضيَّقت به الحياة على نفسك وعلى من حولك، وجعلت من الإسلام قناة ضيقة ومسدودة، وهو في حقيقة الأمر بحر واسع يستوعب كل مياه الأرض.

ثم نظر إلى راضية رضا وقال:

- والآن لا يتبقى سواك يا بنيتي، فهل عندك ما تتطهرين منه أمام الله، عله يكون سبب نجاتنا؟

قامت راضية رضا زوجة الشيخ ابن عبد الوهاب المنتقبة، وقالت بلسان متلعثم وصوت مضطرب:

- لم أتعود الحديث أمام أحد من الغرباء، خصوصا الرجال، ولكن الأمر ما عاد يحتمل التردد طالما أننا معرضون جميعا للموت. أنا ليس عندي غير شعور واحد فقط، وهو أنني مسجونة. ليس فقط داخل ملابسي، ولكن داخل نفسي أيضا. لقد كنت طفلة شقية وعنيدة ومتحررة، وكان الكل يشهد لي بذلك، وكانوا يسمحون لي بممارسة هذه الشقاوة وهذا التحرر، ولكن عندما طرق البلوغ بابي وجدتني فجأة أسيرة هذا اللباس، الذي لا أعلم عنه شيئا غير ما قاله لي أهلي، إنه أمر ديني لحفظ وستر المرأة من أعين الرجال. ولم أقتنع به ولم أرضَ، ولكنني قبلته فقط لأنه أمر ديني وإلهي كما قيل لي، وكان أبي يعاملني منذ أن بلغت بقسوة وشدة،

وحرَّم عليَّ الخروج إلى الشارع إلا لحضور الدرس الديني، والذي يكون بصحبة أمي، كما أنه حرَّم عليَّ الوقوف في الشرفة أو النافذة، والتحدث مع أي أحد من الرجال حتى ولو كان صبيا صغيرا، وشعرت بأن العالم الرحب الذي كنت أعيشه وأنا طفلة، ضاق فجأة عليَّ وضاقت حياتي معه، وخرجت من سطوة أبي إلى سطوة زوجي، نفس التعليمات ونفس التقاليد من ناحيته، ونفس الشعور بالسجن من ناحيتي، فإن كان لي ذنب في كل هذا فإنني أتوب إلى الله منه.

كان الأسى والحزن يملآن تعبيرات وجه الشيخ فاضل وحيد، على ما آلت إليه أحوال مجتمعنا، فقال بلهجة تحمل نفس معاني وجهه:

- الذنب ذنب سجانك الذي سجنك نتيجة جهل يراد به علم، وباطل يراد به حق. كم ضيَّع الجهل من مواهب وعقول وقلوب، غير مسارها وحول مجراها، وانطلق بعربتها إلى الخلف والوراء. إنه لذنب عظيم يستحق التوبة والاستغفار.

وبعد أن انتهى الجميع من الاعتراف بذنوبهم، ساد الصمت أركان الطائرة، وكان إحساسا بالشجن يملأ قلوب ونفوس كل ركابها، السارحين في تأمل كل ما حدث وما رُوي على أسماعهم، ولم يبدد هذا الصمت إلا صوت قائد الطائرة وهو يقول:

- حضرات السادة الركاب، لقد استطعنا بحمد الله وفضله أن نتغلب على العطل الذي حدث، وأرجو أن

يستعد الجميع، فنحن الآن في طريقنا للهبوط على أرض مطار القاهرة.. حمدا لله على السلامة.

سرت عاصفة من التصفيق والتهليل والتكبير بين جميع الركاب، ودفعتهم الفرحة العارمة إلى احتضان بعضهم البعض، وأخذت الصيحات بحمد الله تتعالى في جميع أركان الطائرة، حتى هبطت واستقرت بالفعل على أرض المطار.

وفُتح باب الطائرة واقترب السلم منه، وبدأ الركاب في النزول غير مصدقين أنهم قد نجوا، وأخذ كل واحد منهم يعدل من ملابسه ومنظره، ويعيد إلى وجهه قناعه، ليؤدي نفس دوره الذي كان يؤديه من قبل وكأن شيئا لم يكن.